



اُرِیْے اللہ

توفیق الحکیم



توفيق الحكيم

أُرِني الله

قصص فلسفية

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل مصطفى كامل بالقاهرة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

كتب المؤلف نشرت باللغة العربية

- ١ — محمد ^{عليه السلام} (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- ٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- ٣ — أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
- ٤ — شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
- ٥ — يوميات نائب في الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- ٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- ٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- ٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
- ٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- ١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
- ١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
- ١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- ١٣ — نشيد الأنشاد (كافى التوراة) ١٩٤٠
- ١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- ١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- ١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- ١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- ١٨ — بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
- ١٩ — سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
- ٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
- ٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

— ٤ —

١٩٤٥	٢٢ — شجرة الحكم (صور سياسية)
١٩٤٩	٢٣ — الملك أوديب (مسرحية)
١٩٥٠	٢٤ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية)
١٩٥٢	٢٥ — فن الأدب (مقالات)
١٩٥٣	٢٦ — عدالة وفن (قصص)
١٩٥٣	٢٧ — أرنى الله (قصص فلسفية)
١٩٥٤	٢٨ — عصا الحكيم (خطرات حوارية)
١٩٥٤	٢٩ — تأملات في السياسة (فكر)
١٩٥٩	٣٠ — الأيدى الناعمة (مسرحية)
١٩٥٥	٣١ — التعادلية (فكر)
١٩٥٥	٣٢ — إيزيس (مسرحية)
١٩٥٦	٣٣ — الصفقة (مسرحية)
١٩٥٦	٣٤ — المسرح المتنوع (٢١ مسرحية)
١٩٥٧	٣٥ — لعبة الموت (مسرحية)
١٩٥٧	٣٦ — أشواك السلام (مسرحية)
١٩٥٧	٣٧ — رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية)
١٩٦٠	٣٨ — السلطان الخائر (مسرحية)
١٩٦٢	٣٩ — ياطالبع الشجرة (مسرحية)
١٩٦٣	٤٠ — الطعام لكل فم (مسرحية)
١٩٦٤	٤١ — رحلة الربيع والخريف (شعر)
١٩٦٤	٤٢ — سجن العمر (سيرة ذاتية)
١٩٦٥	٤٣ — شمس النهار (مسرحية)

- ٤٤ — مصير صرصار (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٥ — الورطة (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٦ — ليلة الزفاف (قصص قصيرة) ١٩٦٦
- ٤٧ — قلبنا المسرحى (دراسة) ١٩٦٧
- ٤٨ — بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٦٧
- ٤٩ — مجلس العدل (مسرحيات قصيرة) ١٩٧٢
- ٥٠ — رحلة بين عصرين (ذكريات) ١٩٧٢
- ٥١ — حديث مع الكوكب (حوار فلسفى) ١٩٧٤
- ٥٢ — الدنيا رواية هزلية (مسرحية) ١٩٧٤
- ٥٣ — عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٤
- ٥٤ — فى طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
- ٥٥ — الحمير (مسرحية) ١٩٧٥
- ٥٦ — ثورة الشباب (مقالات) ١٩٧٥
- ٥٧ — بين الفكر والفن (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٨ — أدب الحياة (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٩ — مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير) ١٩٧٧
- ٦٠ — تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ١٩٨٠
- ٦١ — ملاح داخلية (حوار مع المؤلف) ١٩٨٢
- ٦٢ — التعاادلة مع الإسلام والتعادلية (فكر فلسفى) ١٩٨٣
- ٦٣ — الأحاديث الأربعة (فكر دينى) ١٩٨٣
- ٦٤ — مصر بين عهدين (ذكريات) ١٩٨٣
- ٦٥ — شجرة الحكم السياسى (١٩١٩ — ١٩٧٩) ١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت
عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى
الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان)
بنيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثري كنتنترا بريس)
واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٢٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية
في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩
(طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨
(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية
عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن
عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨
وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١
وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما
عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .
عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

— ٧ —

- ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
- عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات قضائي شاعر) عام ١٩٦١ .
- بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بيت الثلج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢ .
- الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
- صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

- الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتر)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتر)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتر)
واشنطن ١٩٨١ .
- الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتر) واشنطن
عام ١٩٨١ .
- الشیطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
- بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .
- العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .
- دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .
- لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتر بريس) بواشنطن عام
١٩٨١ .
- الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣ .

- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤ .
- يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية في لندن عام ١٩٦٦ في دار نشر أكسفورد يونيفرستي بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .
- مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .
- مع : كل شيء في مكانه .
- السلطان الخائر .
- نشيد الموت .
- لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .
- الشهيد : ترجمة داود بشاي (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدهنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .
- محمد ^{صلى الله عليه وسلم} : ترجمة د . إبراهيم الموجي ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .
- المرأة التي غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .
- عودة الوعي : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلي وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

أرنك الله

كان فى سالف العصر والأوان رجل طيب السريرة صافى
الضمير ، رزقة الله طفلاً ذكى الفؤاد ذلق اللسان .. فكانت أمتع
لحظاته ساعة يجلس إلى طفله يتحدثان كأنهما صديقان ...
فيلحظ كأن فارق السن و فاصل الزمن يرتفع من بينهما كستارة
وهمية من حرير فاذا هما متفقان متفاهمان ، لهما عين العلم
وعين الجهل بحقائق الوجود وجواهر الأشياء ...
نظر الرجل يوماً إلى طفله وقال :

— شكراً لله ! ... أنت لى نعمة من الله ! ...

فقال الطفل :

— إنك يا أبت تتحدث كثيراً عن الله .. أرنى الله ! ...

— ماذا تقول يا بنى !؟ ...

لفظها الرجل فاغر الفم ، ذاهل الفكر ، فهذا طلب من الطفل
غريب لا يدري بم يعجب عنه وأطرق ملياً .. ثم التفت إلى
ابنه مردداً كالمخاطب نفسه :

— تريد أن أريك الله ؟ ...

— ١٢ —

- نعم ... أرني الله ! ...
- كيف أريك ما لم أراه أنا نفسي ؟ ...
- ولماذا يا أبت لم تره ؟ ...
- لأنني لم أفكر في ذلك قبل الآن ...
- وإذا طلبت إليك أن تذهب لتراه ... ثم تريني إياه ؟ ...
- سأفعل يا بني ... سأفعل ...
- ونفض الرجل .. ومضى لوقته وجعل يطوف بالمدينة يسأل الناس عن بغيته ، فسخروا منه ، فهم مشغولون عن الله ومشاهدته بأعمالهم الدنيوية .. فذهب إلى رجال الدين فحاوروه وجادلوه بنصوص محفوظة ، وصيغ موضوعة ... فلم يخرج منهم بطائل ... فتركهم يائساً ... ومشى في الطرقات مغموماً يسأل نفسه : أيعود إلى طفله كما ذهب خاوى اليد مما طلب ؟ ... وأخيراً عثر بشيخ قال له :
- « اذهب إلى طرف المدينة تجد ناسكاً هرماً لا يسأل الله شيئاً إلا استجاب له ... فربما تجد عنده بغيتك ! ...
- فذهب الرجل تَوّاً إلى ذلك الناسك وقال له :
- جئتكَ في أمر أرجو أن لا تردني عنه خائباً ...
- فرفع إليه الناسك رأسه بصوت عميق لطيف :

— ١٣ —

- اعرض حاجتك ! ...
- أريد أيها الناسك أن ترينى الله ! ...
- فأطرق الناسك وأمسك لحيته البيضاء بيده وقال :
- أتعرف معنى ما تقول ؟ ...
- نعم ... أريد أن ترينى الله ! ...
- فقال الناسك بصوته العميق اللطيف :
- أيها الرجل ! ... إن الله لا يرى بأدواتنا البصرية ... ولا يدرك بحواسنا الجسدية .. وهل تسير عمق البحر بالأصبع التى تسير عمق الكأس !؟ ...
- وكيف أراه إذن ؟ ...
- إذا تكشف هو لروحك ...
- ومتى يتكشف لروحي ؟ ...
- إذا ظفرت بمحبته ...
- فسجد الرجل وغفر التراب جبهته وأخذ يد الناسك وتوسل إليه قائلاً :
- أيها الناسك الصالح ... سل الله أن يرزقنى شيئاً من محبته ...
- فجذب الناسك يده برفق وقال :

— ١٤ —

— تواضع أيها الرجل واطلب قليل القليل ...

— فلا طلب إذن مقدار درهم من محبته ...

— يا للطمع ! ... هذا كثير ... كثير ...

— ربع درهم إذن ؟ ...

— تواضع ... تواضع ...

— مثقال ذرة من محبته ...

— لا تطيق مثقال ذرة منها ...

— نصف ذرة إذن ؟ ...

— ربما ...

ورفع الناسك رأسه إلى السماء وقال :

— يا رب .. ارزقه نصف ذرة من محبتك ! ...

وقام الرجل وانصرف ... ومرت الأيام ، وإذا أسرة الرجل وطفله وأصحابه يأتون إلى الناسك ويفضون إليه بأن الرجل لم يعد إلى منزله وأهله منذ تركه ، وأنه اختفى ولا يدرى أحد مكانه ... فنهض معهم الناسك قلقاً ، ولبثوا يبحثون عنه زمناً إلى أن صادفوا جماعة من الرعاة قالوا لهم : إن الرجل جُن وذهب إلى الجبال ودلوهم على مكانه ... فمضوا إليه فوجدوه قائماً على صخرة ... شاخصاً ببصره إلى السماء فسلموا عليه

— ١٥ —

فلم يرد السلام ... فتقدم الناسك إليه قائلاً :
— انتبه إليّ ... أنا الناسك ... فلم يتحرك الرجل ؛ فتقدم
إليه طفله جزعاً ، وقال بصوته الصغير الحنون :
— يا أبت ... ألا تعرفنى ؟ ...
فلم يبد حراكاً ... وصاحت أسرته وذووه من حوله
محاولين إيقاظه ، ولكن الناسك هو رأسه قانطاً وقال لهم :
— لا جدوى ! ... كيف يسمع كلام الآدميين من كان فى
قلبه مقدار نصف ذرة من محبة الله ؟! ... والله لو قطعتموه
بالمنشار لما علم بذلك ! ...
وأخذ الطفل يصيح ويقول :
— الذنب ذنبى ... أنا الذى سألته أن يرى الله ! ...
فالتفت إليه الناسك وقال وكأنه يخاطب نفسه :
— أرايت ؟ ... إن نصف ذرة من نور الله تكفى لتحطيم
تركيبنا الآدمى وإتلاف جهازنا العقلى ! ...

الشهيد

دقت أجراس الكنائس ونواقيس الكاتدرائيات احتفالاً بعيد الميلاد ، وسرى رنينها فى جسد روما كما يسرى الروح العلوى فى أبدان الرهبان ... فى تلك اللحظة هبط المدينة شخص غريب يمشى نحو الفاتيكان ... وهو يهدف السمع إلى تراتيل الأناجيل ترتفع فى كل مكان : « العذراء تحبل وتلد ابناً ... وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ... » وكانت أصوات الأرغن تحملها إلى أذنيه صادحة بألحان « أوراتوريو المسيح » لهاندل و « أوتوريو الميلاد » لجوهان سباستيان ... آيات من الموسيقى الدينية تشيد كلها بعيسى إذ جاء يحمل إلى الإنسانية التى نخرت فيها الأنانية ، ناموس الحب الذى يطهرها من الآثام ...

وبلغت التراتيل هذه الفقرة من الأناجيل : « قال له إبليس إن كنت ابن الله ، فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً ... فأجابه يسوع قائلاً : أن ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان ... بل بكل كلمة

تخرج من فم الله ... فأخذه إبليس إلى جبل عال وأراه جميع
ممالك العالم ومجدها وقال له : أعطيك هذه كلها إن خررت
وسجدت لى ... حينئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان ... إنه
مكتوب : « للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد ! ... »
هنا انطلقت من الشخص الغريب زفرة ، وصاح فى أعماق
نفسه : « ليتنى أطعته فى ذلك الحين ! ... »

وكان قد وصل إلى قصر « البابا » فطلب المثل بين يديه
للفور ، ولم يكن من الهين الوقوف فى طريق ذلك الشخص ...
لقد كان فى عينيه شبه قوة لا تصد وأمر لا يرد ... لم يستطع
أحد اعتراض سبيله ... لا القساوسة ولا الكرادلة ... فتحت
أمامه الأبواب ، فدخل مطرقا خاشعاً إلى مقر رئيس الكنيسة ...
وسدد البابا إليه البصر ، وراه فى صورة رجل ، فقال له
بصوت مرتجف :

— أنت !؟ ...

— نعم أنا ...

— وماذا تريد منى ؟ ...

— الدخول فى حظيرة الإيمان ...

— ماذا تقول أيها اللعين !؟ ...

(أرى الله)

لفظها البابا هامساً ، وهو كالغارق في ذهول ... ولكن الزائر
الغريب بادر بصوت ممتلئ بالصدق ، ملتهب بالإخلاص يقول :
— ما عدت أستحق هذا الوصف .. إلى جئت إليك
لأتوب ... والويل لي إن كنت تهزأ بي أو تشك في قولي ... لكل
شيء نهاية ... وكان لا بد لي أن أبصر الحق ذات يوم ، وأن أعود
إلى الصواب .. كان من المحتوم أن أحن إلى صدر الله يوما ، وأن
أزهد في تلك الحرب الطويلة التي لا نفع فيها ، وأن أهجر الإصرار
والعناد ، وأن أعاف مائدة الشر ، وأن أتوق إلى طعم
الخير ... نعم ... خذوا مني ما تريدون ... عذبوني أشنع
العذاب .. أوقعوا بي أفظع العقاب ، ولكن برب السموات لا
تحرمونى مذاق الخير لحظة ... ما طعم هذا الشيء الذى تسمونه
« الخير » ، وتملكونه أنتم وتحبسونه عني ؟! ... لقد عشت منذ
الأزل .. طالما كبرت ، وطالما تكبرت ... طالما صمدت ،
وطالما صبرت ، طالما قلت إن ما فى يدي هو كل شيء ، وإني أكفى
ذاتي بذاتي ، لا حاجة لى إلى غير ما أملك لنفسى ولمن يتبعنى فى
مملكى .. وما من أحد لم يتبعنى برهة من الزمن ... رعيتى فى كل
مكان .. حتى هنا بين تلك الجدران ... على الرغم من المسوح
والصلبان ، ولكن ما قيمة ذلك الملك العظيم ما دمت أحس

الحرمان ، أنقذوني بربكم .. أذيقوني الخير مرة ثم ألقوا بى فى الجحيم ... لقد ألقيت السلاح ونبذت الكفاح ... ما أنا إلا مؤمن ... ذلك كل مطمحى الآن ... أن أصبح واحداً من هؤلاء المؤمنين الخيرين ، ممن تعج بهم الساعة البيع والكنائس ، ساجدين للرب مرتلين الأناجيل ، فرحين بعيد السيد المسيح ، مرددين أقواله مشيدين بأفعاله ... أيها البابا يا وكيل المسيح ... جئت أركع عند قدميك لتعمدنى بيديك ، وتدخلنى فى الدين ، وسترانى من خيرة أبناء الكنيسة الأبرار المخلصين ... اهتز البابا فى عرشه لهذه النبرات الحارة الصادقة ... ولكنه لم يكف عن الهمس والدهش ...

— أنت ؟ .. أنت إبليس ... تدخل الآن فى الدين ؟ ...
— ولم لا ؟ ... ألم يعجىء فى كلام المسيح :
« أقول إنه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطيء واحد يتوب ، أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة » ...
هل فرق المسيح بين شخص وشخص ؟ ... إليس الجميع أمام المغفرة سواء ؟ ... لم تغلقون فى وجهى سبل التوبة ؟ ... إني أتوب ... أدخلونى فى الدين ... استمعوا إلى ما انبثق فى قلبى من إيمان ! ...

وقع البابا فى حيرة ... واضطرب وارتعد للفكرة ... وصاح
 كالمخاطب نفسه ... « لا ... لا ... لا أستطيع هذا » ...
 وكان الأرغن يعزف أنغام ذلك « الميس » للبابا مارسيلوس
 من وضع الموسيقى القديم « بالسترينا » فرفعت فوق أجنتها
 مخيلة البابا إلى آفاق من الأفكار : إذا آمن إبليس ، ففيم إذن بعد
 اليوم مجد الكنيسة ؟ ... وما مصير الفاتيكان ومتاحفه وتحفه
 ومخلفاته الدينية الكبرى ؟ ... كل شئ يفقد معناه وتذهب
 روعته وتولى مقاصده كنيسة « سكستين » التى تزينها تصاوير
 ميكائيل أنجلو عن : « غواية حواء » ، « الأنبياء » ،
 « الطوفان » ، يوم الحساب الأخير » ، ولوحات القاعات
 والمقاصير من ريشة روفائيل عن « خلق الله النور » ، « والخروج
 من الفردوس » و « تعميد المسيح » ...

إن إبليس هو محور الكتاب المقدس بعهد « القديم والجديد »
 كيف يمحى من الوجود دون أن تمحى كل تلك الصور والأساطير
 والمعانى والمغازى التى تعمر قلوب المؤمنين وتفجر خيالهم ؟ ...
 ما معنى « يوم الحساب » إذا محى الشر من الأرض ؟ ... وهل
 يحاسب أتباع الشيطان الذين تبعوه قبل إيمانه ، أم تمحى سيئاتهم ما
 دامت توبة إبليس قد قبلت ؟ ... ثم ما مصير العالم وقد خلا من

— ٢١ —

الشر ؟ ... هذه الحروب التى جعلت من أوروبا المسيحية سيدة
البشر ؟ ... وهذه المنافسات الروحية والمنازعات الذهنية والمادية
التى أوقد احتكاكها شرارة الفكر وضوء العلوم ؟ ! ... لا ... إن
الأمر خطير ... وليس من حق البابا أن يفصل فيه .. إن تحطيم
الشر وفصله من الدنيا ، سيحدثان انفجاراً لن يدرك الذهن له
مدى ...

رفع البابا رأسه ، والتفت إلى إبليس بخرج وضيق :
— ولماذا جئتنى أنا دون غيرى ؟ ... لماذا اخترت المسيحية
دون بقية الأديان ؟ ...

— هذا الاحتفال بعيد السيد المسيح ذكرنى وألهمنى ...
— أصغ إلىّ يا ... لست أدرى بماذا أناديك ؟ ...
أرأيت ؟ ... حتى اسمك بعد توبتك سيثير إشكالا ! ...
كلا ! ... إن الكنيسة ترفض طلبك ... اذهب إذا شئت إلى دين
آخر ...
وولاه ظهره ...

خرج الشيطان من الفاتيكان خائباً ذليلاً ... ولكنه لم يفقد
الأمل .. إن أبواب الله كثيرة ، فيلجأ إلى باب آخر ... ويمشط

حاخام اليهود ...

استقبله الرئيس الإسرائيلي كما استقبله الرئيس المسيحى
واستمع طويلاً إلى أمنيته ... ثم التفت إليه وقال :

— تريد أن تكون يهودياً ؟ ...

— أريد أن أصل إلى الله ...

فتأمل الحاخام قوله ملياً ... إذا عفا الله عن إبليس ومحي الشر
من الأرض ... ففيم إذن التمييز بين شعب وشعب ؟ ... بنو
إسرائيل شعب الله المختار .. لن يكون بعد اليوم مبرر لاختيارهم
دون بقية الشعوب ، ولا امتيازهم على بقية الأجناس ... حتى
السيطرة المالية التى صارت إليهم منذ أجيال ستذهب عنهم
بذهاب الشر عن النفوس .. وزوال الجشع وموت الطمع ،
وفناء الأثرة والحرص والأنانية ... إيمان إبليس سيدك صرح
التفوق اليهودى ... ويهدم مجد بنى إسرائيل

ورفع الحاخام رأسه ، وقال بنبرة استهزاء :

— ليس من عادتنا التبشير ، والاهتمام بأن يدخل فى ديننا
الغير ... حتى ولو كان إبليس ! ... اذهب عنا إلى دين آخر ...

* * *

فخرج إبليس من عنده مخففاً مرذولاً ... ولكنه لم يقنط، لم يزل
أمامه باب : هو دين الإسلام ...

— ٢٣ —

واتجه لوقته إلى شيخ الأزهر ...
واستقبله شيخ الأزهر ... وأصغى إلى قوله وما يسعى إليه ...
ثم التفت إليه وقال له :

— إيمان الشيطان عمل طيب ! ... ولكن ...
— ماذا ؟ ... أليس من حق الناس أن يدخلوا في دين الله
أفواجا ؟ ... أليس من آيات الله في كتابه الكريم :
« فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » ؟ ...
هاأنذا أسبح بحمده وأستغفره ، وأريد أن أدخل في دينه خالصا
مخلصاً ، وأن أسلم ويحسن إسلامي ، وأكون نعم القدوة
للمهتدين ! .

وتأمل شيخ الأزهر العواقب ، لو أسلم الشيطان ، فكيف يتلى
القرآن ؟ ... هل يمضي الناس في قولهم : « أعوذ بالله من
الشيطان الرجيم ؟ ... » لو تقرر إلغاء ذلك لاستتبع الأمر إلغاء
أكثر آيات القرآن ... فإن لعن الشيطان والتحذير من عمله
ورجسه ووسوسته لما يشغل من كتاب الله قدراً عظيماً ...
كيف يستطيع شيخ الأزهر أن يقبل إسلام الشيطان دون أن يمس
بذلك كيان الإسلام كله ! ؟ ...

رفع شيخ الأزهر رأسه ونظر إلى إبليس قائلاً :

— إنك جئتني في أمر لا قبل لي به ... هذا شيء فوق سلطتي ،
وأعلى من قدرتي ... ليس في يدي ما تطلب ... ولست
الجهة ... التي تتجه إليها في هذا الشأن ...
— إلى من أتجه إذن ؟ ... ألسن رؤساء الدين ؟ ... كيف
أصل إلى الله إذن ؟ ... أليس يفعل ذلك كل من أراد الدنو من
الله ؟ ...

— نعم ... ولكنك لست مثل الآخرين ...
— لماذا ؟ ... إلى لم أرد أن أميز نفسي عن الآخرين ... لم أرد
الارتفاع مباشرة إلى السموات العلى أحداث الملائكة وأقابل
الأنبياء .. كان ذلك في مقدوري ، ولكني أبيت الاعتصام
بقدرتي والاعتزاز بشخصيتي ... لم أشأ طرق باب السماء
بصولجان كما يطرقتها ملك ... وإن كان ملك الشر ... لم أشأ
جلجلة السماء بضجيجي ولا زلزلة الأعالي بصياحي ، وأنا أضع
سيفي وأسلم سلاحي ... وأخضع كما يخضع تاج لتاج ...
ولكني أردت أن أدخل باب الدين كمسكين ... وأن أزحف على
ركبتي معفراً رأسى الملكى بتراب الذل ، ملتمساً الهداية والمغفرة
من البيع والكنايس والمساجد كما يلتمسها أحقر البشر وأضعف
الآدميين ...

أطرق شيخ الأزهر لحظة ... وهرش لحيته ثم قال :
 — نية طيبة ولا ريب ! ... لكن على الرغم من ذلك
 أصارحك أن اختصاصى هو إعلاء كلمة الإسلام ، والمحافظة على
 مجد الأزهر ، وأنه ليس من اختصاصى أن أضع يدى فى يدك ...
 — لك الشكر ...

* * *

قالها إبليس بذلة ومسكنة ... وخرج واليأس ملء نفسه ...
 ومشى فى طرقات الأرض على غيرى هدى ... ينظر إلى براءة
 الأطفال فيذوب قلبه حناناً إلى كل شيء طاهر برىء ... ويرى
 الخير فى أعمال الطيبين من الناس فيتجرق شوقاً إلى كل خير
 ويطالع ثمار الصلاح والتقوى والإيمان ، معروضة فى قلوب
 الأخيار المؤمنين ، كأنها فى واجهات الخوانيت ... يمد إليها يداً
 قاصرة عاجزة ، ويشيعها بنظرة ملتاعة والهة ... الحرمان من
 الخير ... تلك هى النعمة الكبرى التى صبت على الشيطان ! ...
 وصاح صيحة ألم بددت السحب ، ونفذت إلى السماء ...
 ولم يطلق صبراً ... فانتفض انتفاضة من كادت روحه تزهر ...
 وتجرأ وصعد إلى الأعلى ...
 دق بيديه أبواب السماء دقاً ... وطرق بروجها طرقات ، وقد

— ٢٦ —

طار صوابه ، كأنه شحاذ صائم يقرع بابا من أجل لقمة عند
الغروب

فظهر له الملاك جبريل :

— ماذا تريد ؟ ...

— التوبة ...

— الآن ؟ ...

— هل جئت متأخراً ؟ ...

— بل جئت قبل الأوان ... ليس لك الساعة أن تغير النظام
الموضوع ... ولا أن تقلب ما استقر من أوضاع ... عُد من حيث
أتيت ، وعش في الأرض كما عشت ...

— أنت أيضاً ؟ ... آه ... ما عدت أستطيع ... أذيقوني
الخير ! ...

— الخير محظور عليك ، إياك أن تمد إليه يداً ...

— شجرة محرمة ؟ ...

— عليك نعم ... ولن تجد ما يعينك على عصيان هذا
الأمر ... كما عاونتك حواء من قبل ... يوم أذاقت آدم من شجرة
الشر ! ...

— أليست هناك رحمة ومغفرة ؟ ...

— ٢٧ —

— ليس للرحمة ولا المغفرة أن تمسا نظام الخليقة ...

— ما أنا إلا حقير في المخلوقات ! ...

— نعم ... ولكن زوالك من الأرض يزيل الأركان ويزلزل الجدران ، ويضيع الملايح ويخلط القسمات ، ويمحو الألوان ... ويهدم السمات ؛ فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة ... ولا للحق بغير الباطل ... ولا للطيب بغير الخبيث ولا للأبيض بغير الأسود ... ولا للنور بغير الظلام ؛ بل ولا للخير بغير الشر ؛ — بل إن الناس لا يرون نور الله إلا من خلال ظلامك ... وجودك ضرورى فى الأرض ما بقيت الأرض مهبطاً لتلك الصفات العليا التى أسبغها الله على بنى الإنسان ! ...

— وجودى ضرورى لوجود الخير ذاته ؟ ... نفسى المعتمدة يجب أن تظل هكذا لتعكس نور الله ! .. سأرضى بنصيبى الممقوت من أجل بقاء الخير ، ومن أجل صفاء الله ... ولكن ... هل تظل النعمة لا حقة بى واللعة لا صقة باسمى ، على الرغم مما يسكن قلبى من حسن النية ونبيل الطوية ...

— نعم ... يجب أن تظل ملعوناً إلى آخر الزمان ... إذا ما زالت اللعة عنك زال كل شئ ...

— عفوك يا رى ! ... لماذا أحمل هذا الوقر العنيف ؟ ...

لماذا كتب علىّ هذا القدر الخفيف ؟ ... لماذا لا تجعل منى الآن ملاكاً بسيطاً من ملائكتك ، يباح له حبك وحب نورك ، ويثاب على هذا الحب بالعطف منك والحمد من الناس ؟ ... هأنذا أحبك حباً لا مثيل له ولا شبيهه ... حباً يستوجب منى هذه التضحية التى لم تدركها الملائكة ولم يعرفها البشر ... حباً يقتضىنى الرضا بارتداء ثوب العصيان لك ، والظهور فى لبوس المتمرد عليك ... حباً يستلزم منى احتمال لعنتك علىّ ولعنة الناس ... حباً لا تسمح لى حتى بشرف ادعائه ، ولا بفرح الانتساب إليه ... حباً يستلزم منى احتمال لعنتك علىّ ولعنة الناس ... حباً إذا كتبه النساك ملاً صدورهم نوراً ... وأنا أكتبه ، ولكن نوره يأبى من صدرى اقتراباً ...

وبكى إبليس ...

وإذا دموعه تتساقط على الأرض... لا قطرات من ماء السحب؛ بل قطعاً من النيازك المعتمة وأحجار الشهب!...
فبادر جبريل مرتاعاً يسكنه :

— حبسك!... إنها تتساقط على غير هدى فوق رؤوس العبادا..
فكف إبليس فى الحال عن البكاء ، وقال بمرارة أليمة وكأنه يخاطب نفسه :

— ٢٩ —

— نعم ... حتى عبراتي كوارث ! ...
وكفكف من دمه متجلداً ... ولطف جبريل من لهجته
قائلاً :

— تحمل مصيرك ... وقم بواجبك ، وامض في مهمتك ، لا
تتململ ولا تتوجع ولا تثر
— أثور ؟ ... لو أنى أردت الثورة حقاً لثرت وعصيت
وخرجت على النظام ، وشققت عصا الطاعة بمجرد صمتي
لحظة ، ووقوفي عن أداء مهمتي برهة ... وامتناعي عن إيجاء الشر
دقيقة ... ولكانت الأرض الآن يا جبريل كما وصفت :
مهدمة الأركان ... مزلزلة الجدران ... ولكنى أحب ،
ولست أثور .. وحبي لله وحده سر هذا التماسك في بناء
أرضه ! ... وسر هذا التماسك في قوانينه ونظمه !

— اسمع نصحي ... عد إلى عملك ! ...
— سأعود متدثراً بعباءة لعنتى ... دون أن أدري متى
أخلعها ؟ ...

إن الممثلين على الأرض يرتدون أحياناً أدوار الخيانة والغدر ...
وهم يعلمون أن لخلعها ساعة موقوته يعودون بعدها شرفاء
أطهاراً ... وقد رد إليهم الاعتبار ... أما أنا ؟ ! ...

— ٣٠ —

— اهبط الأرض وتحمل ... من يحب فليتحمل ! ...
 — إني أفعل أكثر من الاحتمال ... إن من يموت في معركة من
 أجل الله يكتب عنده في الشهداء ... وأنا أتحمّل في سبيله أكثر من
 الموت ... ليّتها كانت معركة ... ليّته كان الموت ... ليتني كنت
 من جنوده ...

يجب أن أعيش لأخالف من أحب ! ... إلى أمقت نفسي
 وألغنها في كل لحظة مرات ... لا أستطيع أن أموت .. حتى أقتل
 نفسي أو أدفع بها إلى القتل في سبيل الله ! ... ولكني أنزل بها من
 صنوف الكره وضروب البغض ما هو أبشع من القتل ، وليس لي
 مع ذلك أن أتطلع إلى رحمة ، ولا أن أطمح إلى مغفرة ، ولا أن
 أطمح في أن أسلك في عداد المجاهدين ...

ولمّح جبريل في عينيه تلك القطرات تتفرّق ... فعاجله قائلاً :
 — لا تبك ... لا تبك ! ... لا تنس أن عبراتك كوارث ،
 وضحكائك كوارث ... لا تكثر من الانفعال رحمة بالناس ...
 اذهب ، واصبر والزم الاعتدال ...

أطرق إبليس ملياً ... وفكر طويلاً ... ثم تحرك أخيراً وهو
 يقول في شبه همس :

— ٣١ —

— صدقت ! ...

* * *

وترك السماء مدعنا ... وهبط الأرض مستسلماً ... ولكن
زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء ... رددت
صداها النجوم والأجرام في عين الوقت ؛ كأنها اجتمعت كلها
معها لتلتقط تلك الصراخة الدامية :
— إني شهيد ! ... إني شهيد ! ...

موزع البريد

عرفته على شاطئ البحر ... ذلك الشخص الغريب الذى
يحمل محفظة كمحافظ موزع مصلحة البريد... كل شىء فيه
ينم عن الكسل والاسترخاء والغباء ... حتى نظرتة إلى الفضاء ،
كانت نظرة المخبول الشائعة الخائرة ... وجلسته كانت جلسة
المتعب المرهق الضجر من نفسه ومن الدنيا ... لقد خيل إلى أن
قاموس هذا الشخص لا يحوى غير كلمة واحدة « أف » ! ...
دنوت منه وقلت له برفق :

— إذا لم يحب ظنى فأنت موزع بريد فى الإجازة ...
— إجازة ! ...

لفظها الرجل دون أن يلتفت إلى ، وفى شبه ضحكة غيظ
مكتوم ... فقلت له :

— ولم لا ؟ ... أليس من حقه أن تنال إجازتك

الأسبوعية ...

— إنى لم أنل إجازة يوماً واحداً طول حياتى ...

— يا لظلم مصلحة البريد ! ... أو ليس فيها نظام

للإجازات ١٩ ...

— مصلحة بريد لا تعرف الإجازات يا سيدى ! ...

— ماذا تقول ! ...

— تصور يا سيدى الفاضل أنى أقوم فى كل يوم مع الفجر

والطير ، فأخذ محفظتى مملوءة منتفخة برسائل عدد هذا

الرمل ، كل من على الأرض له فيها رسالة ... وعلى أنا أن

أطوف بكل مخلوق أسلمه واحدة ... بالعدل والقسطاس ...

إلى أن ينتهى اليوم ... وبانتهائه يجب أن تفرغ المحفظة ...

لتملاً فى اليوم التالى من جديد برسائل جديدة ... توزع على

الناس واحدة واحدة ... بالعدل والقسطاط ، وهكذا

دواليك ... لا الأيام تنتهى ، ولا الناس تفنى ، ولا المحفظة

تفرغ ... لا شىء يفرغ غير صبرى ... ولكن ما حيلتى ؟ ...

لا بد لى من العمل ... وإلا تراكمت على رسائل يومين ... فأقع

فى حيص ييص ...

(أرى الله)

— ٣٤ —

— يا للعجب ! ... ألا يوجد فى المصلحة موزعون
غيرك ...

— لا يوجد غيرى ... أنا كل المصلحة ...

— أهو إهمال أو سوء إدارة ؟ ...

— لست أدرى ... لطالما تظلمت من كثرة العمل فذهبت
صيححاتى فى الهواء ؛ وانتهى بى الأمر إلى ما ترى من التواكل
وقلة الاكتراث ...

— وهل تتمكن من توزيع هذه الرسائل فى يومك ؟ ...

— إنى أوزعها حيثما اتفق ، ولا يطالب إنسان بأكثر مما
يستطيع ... ولم أر أحداً حاسبينى على خطأ ارتكبته ... ولا بد
أنى ارتكبت بالضرورة كثيراً من الأخطاء ... المهم هو أنى لا
أرجع آخر الأمر برسالة واحدة فى محفظتى ...

* * *

قالها وهو يفتح محفظته كأنما تذكر وجودها ... فأبصرت
فيها حقاً عدد الرمل من الرسائل ... فقلت له مرتاعاً :

— متى توزع كل هذا ونحن الآن فى الضحى ؟!

— لا تعش على ... سأفعل ما أفعله كل يوم ...

— ٣٥ —

ومد يده إلى صياد بقربنا ظل من مطلع الصبح لا يصطاد
شيئاً ... فدرس في جيبه عشرا من الرسائل ... فإذا شبكته تخرج
برزق من السمك أذهله من العجب ، وأرقصه من الفرح ...
وكان على بعد منا جماعة من الصيادين يحاولون عبثاً أن
يخرجوا من البحر سمكة ...

فقلت لصاحبي الموزع مشيراً إليهم :
— وهؤلاء ؟ ...

فنظر إلى ناحيتهم وقال متبرماً :
— هؤلاء بعيدون عني ... إننى كما قلت لك رجل
متعب ... وما من شيء يضطرني إلى أن أقصد كل واحد منهم
لأعطيهم رسالة ... لقد أعطيت رسائلهم إلى هذا الصياد
القريب ...

— أو تفعل هكذا برسائل الناس دائماً؟..
— طبعاً... وهل أنا من الجنون بحيث أوجع مفاصلي وأقبط
أنفاسي جرياً وراء كل حى من عباد الله؟! ... إننى أعطى من
صادفنى رسائل من لا يصادفنى ... وأنا مستريح فى أمان الله! ...

ومرت بقربه عندئذ عجوز حيزبون ، كريمة الصوت ، سيئة
الخلق ، تخرج من ثوبها ورقة « يا نصيب » وتنادى بائع صحف
لتكشف عن رقمها فى الجريدة ، وهى تأمره وتنهاه بلهجة دونها
السباب وقاحة ... وخلفها غيد كالغزلان فى أثواب « البلاج »
يركضن على الرمال ... ويلوحن بأذرعهن الفضية ، ويحملن
فى أيديهن البضة أوراقا من هذا اليانصيب يردن كذلك الكشف
عنها ... فاقتربت العجوز من الموزع العجيب ؛ فأخرج من
محفظته ألف رسالة دسها فى جيبها ... فما كادت تكشف عن
ورقتها حتى وجدت رقمها هو الرابع للجائزة الكبرى البالغة من
الجنیهات ألفاً ... فصاحت بصوتها القبيح صياح لظفر والفرح
والانتصار ! ...

هنا طار صوابى وصحت فيه :

— اتق الله يا شيخ ! ... وكن صاحب نظر ، إن لم تكن
صاحب عدل ... هذه الشمطاء الشواء التى يكره أن يضحك
لها قبر ، تقبل عليها أنت وتمنحها هذه النعمة ... وعلى
خطوات منها هؤلاء المليحات ينضح منهن الصبا ... فرحات
بالحياة ، والحياة بهن فرحة ... لا تبصرهن عينك ولا يضحك

لهن وجهك ...

فدفعنى عنه بيده وقال :

— اسكت ... من فضلك اسكت ... لو كان على أن أميز
بين الربيع والخريف ، والقبيح والمليح ، وأن أفرز الذى يستحق
ممن لا يستحق ، لما كنت أنهى شغلا فى يومى ! ...
— أليس لكل إنسان عندك رسالة بنصبيه المماثل لنصيب
أخيه ؟ ...

فصرخ فى وجهى :

قلت لكم لا أستطيع أن أفعل المستحيل ! ...
ارحمونى ! ... أما من أحد يرحمنى أو يعذرنى فى الأرض أو فى
السماء ! ... إنهم فى السماء يقولون لى : « جلبت علينا
بإهمالك سخط الناس » ! ... وأنتم فى الأرض تصيحون بى :
« هذا أخذ وذلك لم يأخذ » ! ... وأنا وحدى المظلوم ...
بصرى كل ، وعقلى اختل من إرهاقى بالعمل أجيالا بعد
أجيال ... احمدا ربكم أيها الناس ... إن عيني تبصر
أشباحكم ، وإنى أنثر عليكم كل ما فى محفظتى يوما بعد
يوم ... ذلك أقصى قدرتى ! ... من دنا منى أو دنوت منه

أخرجت له وأعطيته ما لمس أصابعى ... ما وقع فى قبضتى ...
 مالتقطته من المحفظة أو ما عرفته ... وفقاً للمصادفات وتبعاً
 للظروف.. أما أن أوزع بالعدل والقسطاس على كل إنسان نصيبه
 المماثل لنصيب أخيه ؛ فهذا عمل يحتاج إلى جبرى لا تحتمله
 ساقاى ، وجهد تعجز عنه قواى ... اتهمونى بالكسل ما
 شئتم ... أو بالظلم ، أو بالإهمال ... فلن أصنع أبداً غير ما
 ترون ... ومن له شكوى فليعلنها ما شاء ، فان عدد الشكاوى
 التى تقدم كل يوم فى حقى تبلغ عدد هذا الرمل أيضاً :

وانصرف عنى وعن الشاطىء ذلك « الموزع العجيب »
 وتركنى ساجحاً فى أفكارى ، غارقاً فى تأملاتى ... إلى أن نهتئى
 صيحات الفرخ من الصياد المخطوط ، وضحكات الغبطة من
 الراجحة العجوز ... فنهضت أركض خلفه كالمجنون :
 — أيها الموزع ! ... انتظر ... نسيت أن أطلب إليك ...
 أعطني رسائلك ... اغرف لى من محفظتك ! ...

لكنه كان قد اختفى ... وقعدت أنا على الشاطىء عيائساً لا أجد

— ٣٩ —

غير رماله تغرف منها قبضتى ، وغير بنانى أعضه ندما وأقول :
— لعنة الله على ! ... كان « الحظ » ها هنا إلى جانبى
بمحفظته المملوءة ؛ يعطى منها بغير حساب ! ... ولكنها
الفلسفة ... قاتلها الله ... شغلتنى عن مصلحتى ... وشغلته عن
إعطائى ... فضاغ الوقت معه فى الكلام ... ولم أظفر من لقائه
بغير كلام ! ... ولو لم يمتد فكرى إليه لامتدت يده إلى ، ولكنك
اليوم روتشيلد ، وروكفلر ، وقارون ! ...

أنا الموت ! ..

فى سيدى بشر صخرة يحيط بها زبد البحر وحبب الموج
 كما تحيط قلادة اللؤلؤ بعنق جنية سمراء ... فوق قمة تلك
 الصخرة جلس شاب فى يده كتاب ، لا يطالعه ... ولكنه يطالع
 الأفق اللانهائى تارة ، وتارة أعماق الماء ... ما من شك فى أنه
 يصغى إلى همسات تناجيه وتناديه ... أهى خارجة من بين أسطر
 كتابه .. أم آتية من الشفق البعيد ، أم صاعدة من الغور
 السحيق ؟ ... إنه يسمعها من هنا ومن هناك ... إن لغتها
 مفهومة له ... وإن مراميها معلومة لديه ... وجاءت اللحظة
 الحاسمة : فنهض قائماً كأن شيئاً يجذبه ، وألقى بنفسه فى
 الماء ...

لم يمض قليل حتى شعر السباحون ورواد « البلاج » أن فى
 البحر غريقاً ... هاج الشاطئ بمن عليه وماج ... وعلا الصياح
 وارتفع الضجيج ، وبادرت قوارب الإنقاذ ... وهرع
 المجازفون من حذاق السباحة ... وبدا للناس أن تلك التدابير

على غير جدوى ، فهم يرون على البعد ذلك الجسد التعس
يتنفض ويتخبط في لحظاته الأخيرة ، ولم تعد تظهر منه إلا
الأذرع المضطربة مع الأمواج ... ولن يصل المنقذون إلا وقد
صار في القاع ... وجعل الناس يتتبعون مصير ذلك المجهول
بقلوب واجفة ... وكثر البكاء عليه من كل رقيقة أو متظاهرة
بالرقة ... وتمتت الأفواه بالترحم عليه ... وقد أيقن الجميع
بهلاكه ، ولم يبق عند أحد شك في تلفه ...

ولكن صيحة فرح لم تلبث أن دوت في ذلك الجو
العابس ... فالتفت الناس ... فإذا فتاة في « مايو » تركب قارباً
صغيراً من المطاط زاهى اللون قد ظهرت من خلف الصخرة
تحمل أمامها فوق مطيتها جسم ذلك الشاب : كأنها تحمل
مقطف مشترياتا من السوق ، وهى تهلل مرحة فى قلب
البحر : « هو ... هو ... هالو ... هالو ... ! »

فأدرك الناس أن ذلك الجسم المحمول بين يديها لم يزل
ينبض بالحياة ...

وهتفت الجماهير على الشاطئ للفتاة ، واتجهت إليها
جماعة السباحين والمنقذين ، يأخذون منها الغريق ...
ويسلمونه لرجال الإسعاف ، ومشت الفتاة مختالة بين الحشد

— ٤٢ —

المحيط بها ، المتسائل عن حقيقة الحادث ... وهى تجيب
قائلة : إنها شاهدت كل شيء ... من البداية حتى النهاية ؛ فقد
كانت تجدف فوق قاربها المطاط قرب الصخرة ، وأبصرت
الشاب وهو يهب مستوياً على قدميه فوق القمة ، ويطرح من يده
الكتاب ثم يلقي بنفسه فى الماء ؛ فأسرعت إليه مجدفة بكل
قوتها حتى بلغتة وقد كادت تطويه الأمواج ، فقبضت على
ذراعه وجذبتة إلى مطيتها الخشبية وهو خائر القوى فاقد
الوعى ...

— إنه حادث انتحار إذن ؟ .. لماذا أراد أن ينتحر ؟ ! ...

هذا هو السؤال الذى حار على كل الشفاه ! ...
قد يكشف التحقيق عن السر ، فالانتحار من الحوادث
الجنائية التى يجب أن تتولى فيها التحقيق النيابة العمومية ...
ولم تكن حالة المصاب الصحية على شيء من الخطر ...
فلم يكذب يسعف بالعلاج حتى أفاق ... وعاد بعد قليل إلى حياته
الطبيعية ، ومثل بين يدي وكيل النائب العام ، وكان فى قاعة
التحقيق تلك الفتاة شاهدة الإثبات تدلى بأقوالها ، فلما
فرغت ... التفت المحقق إلى الشاب قائلاً :
— ما هو الباعث لك على الانتحار ؟ ...

— ٤٣ —

فلم يجب الشاب ، ولكنه التفت إلى الفتاة يتأملها من رأسها إلى كعب حذاءها ... لا تأمل المعجب بحسنها ؛ بل ...
وكنتم في صدره نفخة غيظ ثم قال :
— وما هو حق الأنسة في منعى من الانتحار ؟ ...
فتردد النائب قليلا ، ثم أراد الكلام ... ولكن الأنسة
انطلقت تجيب :

— لو رأيت منديلى يسقط منى فى الطريق أفلا تنحنى وتتناوله
وترده إليّ ؟ ... إذا كان هذا من حقك ، أفلا يحق لى وقد رأيت
حياتك تسقط منك فى البحر أن أنحنى وأتناولها وأردها
إليك ؟ !

فقال الشاب بقوة :

— لا يا سيدتى ! . موضوعنا عكس ذلك بالضبط ... إن
منديلك لم يسقط منك فى الطريق ... بل أنت بيدك وإرادتك
أسقطته عن عمد ... فلو رآك أحد وأنت تلقين به فى الطريق أو
فى البحر ، ثم تطفل وتدخل ليرده إليك ؛ فهل تعتبرين هذا من
حقه ؟ ...

فقالت الفتاة متحدية :

— ولكن المنديل ...

— ٤٤ —

وهنا تململ وكيل النيابة فصاح :

— دعونا من مسألة المناديل هذه ... هذا كلام لا يدون في محاضرتنا ... نحن أمام جنائية شروع في انتحار ... ولقد وجهت إليك أيها الشاب سؤالاً صريحاً ... ما السبب الذى دفعك إلى ذلك ؟ ... والمطلوب الإجابة عن هذا السؤال بدقة مع عدم الخروج عن الموضوع ... تفضل ! ...
فقال الشاب :

— اكتبوا ذلك السبب التقليدى الذى نطالعه كثيراً فى الصحف : « لضيق ذات اليد » ...
فقال النائب :

— أو نسيت أنك قررت فى المحضر عند سؤالك عن صنعتك أنك من ذوى الأملاك ، وأنت تعيش من ريع عقارات ورثتها عن أبويك ؟! ...

— إذن قولوا: إن السبب هو البله أو الخبل أو الضعف العقلى ! ...
— أعاب عنك أنك قررت فى المحضر أنك حائز على ما جستير فى الفلسفة من الجامعة ؟! ... الفلسفة من الجامعة ؟! ...

— قل لى يا حضرة النائب : ماشأنكم إذا كنت أريد أن أحيأ أو أريد أن أموت ؟ ...

— عجباً ! ... ألا تعرف أن الانتحار جريمة ؟ ...

— أعرف أن الانتحار هو رغبة في الانتقال من دار إلى دار ...
ألا تقرأ في أعمدة الوفيات بالصحف كل يوم : انتقل فلان من
الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل المصيف إلى الإسكندرية من
القاهرة ... اعتبروني إذن من المصيفين ... زهدت في مصايف
الدنيا كلها ... فخطر لى أن أنتقل من هذا العالم إلى عالم
آخر ...

— هكذا بدون جوار سفر ... أو بدون تذكرة ... أو بدون
ترخيص ؟ ...

— حتى فى هذا أيضاً لا بد من هذه الإجراءات ؟ ...
— طبعاً ... وهل تظن الأمر فوضى حتى تنتقل من عالم إلى
عالم من تلقاء نفسك خفية على هذا النحو ؟ ... إن كل مسافر
خفية يعتبر مخالفاً حتى المسافر إلى العالم الآخر ! ...
— إذن اعتبروني مخالفاً ؛ لأننى سافرت بدون ترخيص أو
بدون أمر ... ولكن لا حق لك فى أن تسألنى عن سبب
السفر ! . فليكن لتغيير الجو ، أو للتهرب من الدائنين ، أو
لملاقة عزيز ، أو للتخلص من ثقل ...

— اسمح لى بأن أذكرك بأن سبب السفر يطلب دائماً فى

أحوال الانتقال النهائى والإقامة الدائمة بين بلد وبلد ... فمن باب
أولى إذا كان الانتقال والإقامة بين دنيا ودنيا ...

— أف ! ... يا لفضول الناس ؛ ويا للحرية المفقودة على هذه
الأرض ! ...

وأطرق الشاب قليلا ... وجعل رأسه بين كفيه ... وانتظر
وكيل النيابة لحظة ؛ رأفة به وإشفافاً من الإثقال عليه ... إلى أن
اعتدل الفتى والتفت إلى المحقق بعينين تقولان : أمُصّر أنت ؟ ...
فقال النائب :

— نعم ... لا بد من الإجابة عن سؤالنا ...

فقال الشاب وهو يتبهاً للقيام :

— اكتب إذن أن السبب هو مرض نفسى ... وهذا كل ما

عندى ...

ولم ير المحقق بداً من الاكتفاء بهذا الجواب وتتم إجراءاته ...
وختم محضره ... وأذن للشاب والحاضرين فى الانصراف ... لم
يكذ الفتى يخرج إلى الطريق حتى كانت الفتاة فى أثره تقول :
— أرجو أن يكون سخطك علىّ قد زال ...

فالتفت إليها على الفور قائلاً :

— لن يزول ما دمت على قيد الحياة ...

— ٤٧ —

— إلى هذا الحد ترانى قد أسأت إليك ؟ ...

— لولا تدخلك الطائش لكنت الآن فى عالم أرقى ! ...

— تدخلى الطائش ؟! ...

— وداعاً يا سيدتى ... وداعاً ! ...

وتركها وقفز من فوق الإفريز ليجتاز الشارع مسرعاً ... وإذا
سيارة نقل ضخمة قد داهمته وكادت عمجلاتها تسحقه ... لولا
جذبة من يد الفتاة جرتة إلى الخلف أعادته سالماً إلى الإفريز حيث
كان ... فرماها بنظرة نارية فهمت معناها ... وقالت بصوت
يقطر حيرة وأسفاً :

— لا تؤاخذنى ... هذا غصب عنى ...

فهبز رأسه غيظاً وقال كالمخاطب لنفسه :

— لا فائدة ... ما دمت أنت موجودة فلن أرى الموت

بعينى ! ...

فقالته شبه معتدرة :

— وكيف كان ينبغى أن أتصرف ؟! ...

فانفجر حائقاً ثائراً ...

— كفى ... كفى ... مصيبة نزلت على رأسى وانتهى

الأمر ! ... من أين طلعت لى أيتها المخلوقة ؟ ... تفسدين

تفكيرى وتديبرى ، وتعبثين بخططى وتحولين بينى وبين .
 مصيرى ؟! .. أخبربنى ... كيف أهرب منك ؟ ... قولى
 لى ... كيف أهرب منك كى ألاقى الموت ؟! ...
 فلم تستطع الفتاة أن تكنم ما خامرها من ضحك ... غير أنها
 تماسكت وتصنعت الجذ وقالت :

— مصيبة نزلت عليك ؟! ... ولماذا لا تعتبرنى ملاكك
 الحارس ؟ ...

— أنت ؟ ... لو كنت ملاكاً حارساً لا استطعت على الأقل
 أن أغافلك وأصنع ما أشتى ...
 — ماذا تشتى ؟ ... أن تموت ؟ ...
 — نعم ...

فصوبت إليه نظرة فاحصة ، ثم قالت :
 — ما كنت أعرف أن للموت هواة كهواة التنس ، والبنج
 بونج ، والتجديف ! ... يجب أن أعترف حقاً أنى أخطأت إذ
 منعتك من ممارسة هوايتك المفضلة ! ... ولكن الأمر بسيط ...
 فى الإمكان إصلاح الخطأ فى الحال ...
 — كيف ؟ ...

— هانتذا موجود ... والصخرة لم تنزل قائمة ، والبحر لم

ينضب بعد ...

— ألقى نفسى فى البحر من جديد ؟ ...

— وسأجلس أنا على القمة أطالع كتابك ... وأشاهدك تهوى

فى الماء ... فلا أرفع عينى عن الصفحة حتى أتمها على مهل ، وبعد

ذلك ألتفت إليك وأترحم عليك ... مبسوط ؟ ... هيا بنا ! ...

— نعم ... هيا بنا ...

قالها بصوت فيه القوة والعزم والتحدى ... ومضى قاصداً

« سيدى بشر » والفتاة إلى جانبه فى مثل عزمه وتحمسه ، وفطن

إليها فجأة ، فاستدار قائلاً :

— أنا ذاهب إلى الموت ... وأنت ... ما شأنك ؟ ...

— أسلمك إليه بيدي كما أنقذتك منه ! ...

— هلمى بنا ...

وبلغا « بلاج » سيدى بشر ... وأبصرا الصخرة ...

فقال الفتاة :

— عندى اقتراح ... دعك من حكاية الصخرة ، وليلبس كل

منا « المايوه » ونسبح فوق « البلسوار » وبعد ذلك ...

— ولكنى لا أعرف العوم ...

— وما الضرر ما دمت تريد الغرق !؟ ...

(أرنى الله)

— ٥٠ —

— صدقت ... وبعد ذلك ماذا ؟ ...

— بعد ذلك تنزحلق وأنت من فوق « البلسوار » وتسقط بين الأمواج في المكان الذى يروق لك .. إنها موتة « سبور » طريفه ! ... ما رأيك فيها ؟ ...

فهرش رأسه قليلا وتفكر لحظة ثم قال :

— لا يا سيدتى ... لا تمتنى جلال الموت ... أنا الشاب الجاد طول عمرى ، أختتم حياتى بموت « سبور » بدل أن أختمها بموت وقور !؟ ... يا للنساء ! ... لا يضعن إصبعهن فى شىء حتى ينقلب لعباً وعبثاً وهواً ... اذهبنى عنى أيتها المرأة ! ...
— لا تغضب ! ... هلم إلى الصخرة ...

لم تمض برهة حتى كان الفتى والفتاة فوق قمة تلك الصخرة المعروفة فى « سيدى بشر » ... كأنهما عاشقان هربا بحبهما من ضجيج المجتمع وصخب الأرض ... وهل يستطيع الناظر إليهما عن بعد أن يتوهم فى أمرهما غير ذلك ، مهما أوتى من فراسة ؟ ... منذا يشاهد هذين المنفردين الجميلين وهما يتطلعان إلى البحر بنظرات حاملة ويخطر فى باله تلك الصلة العجيبة التى تربط أحدهما بالآخر ... أو يمر بخلداه تلك الفكرة المروعة التى

— ٥١ —

تجول برأس كل منهما الساعة ١٢ ...

وطال صمت قطعته الفتاة بقولها :

— من واجبي أن أنصحك أن تتروى ...

— لا حاجة لي إلى نصائحك ...

— أنت حر ...

— هس ! ... دعيني أسمع تلك الهمسات التى تناجينى

وتنادينى ، إنها آتية من الشفق البعيد ... بل هى صاعدة من الغور

السحيق .. ألا تسمعينها ؟ ...

فسددت إليه نظرة أرادت أن تنفذ بها إلى أعماق نفسه ،

وقالت :

— همسات تناجيك وتناديك ؟ ... اسمع ... أنا لست وكيل

نيابة أمامه محضر ، وأنت شخص على أبواب الوفاة ، ولن أحول

بينك وبين الموت كما اتفقنا .. فهل تسمح وتفضى إلى بسر

انتحارك ؟ ... ثق أنى سأحتفظ به لنفسى ... ولن أبوح به

لأحد .. قل ... ما سبب الانتحار ؟ ...

فلم يجبها ولم يلتفت إليها ... وظل يحملق فى ماء البحر ..

ولبثت هى تنتظر أن تنفرج شفتاه عن كلام ... فلما أعياها

سكوته طفقت تقول :

— ٥٢ —

- السبب ظاهر ... طبعاً من أجل امرأة ! ...
- فاتجه إليها بوجهه ورمقها بنظرة سخرية ، ثم عاد إلى ما كان فيه
من تأمل الماء دون أن ينبس بحرف ... فأردفت تقول بإصرار :
- لا بد أن يكون هذا هو السبب ... من أجل امرأة في
حياتك ... أو لعدم وجود امرأة ! ...
- فاستدار يقول لها بهدوء :
- لماذا تجعلين للمرأة هذه الأهمية في الكون ؟ ...
- إذن ما السر ؟ ...
- يهملك أن تعرفي ؟ ...
- جداً ...
- اعرفي إذن أنه لا يوجد سر ... كل ما في الأمر أني أريد
الخروج من الحياة ... أريد أن أخرج منها بكل بساطة ... ماذا في
ذلك ؟ ...
- إنك لم تدخل الحياة بإرادتك حتى تخرج منها بإرادتك ...
- كدت أخرج منها بإرادتي ، لولا فضولك وانحشارك فيما
لا يعينك ...
- الحق معك ... هذا درس ينفعني في المستقبل ... وإن كنا
أحياناً لا نقوى على منع أنفسنا من تنبيه الغافل ... هذه الحياة التي

تمقتها ... انظر إليها ... أليست جميلة ! ... أنت لا ترى في الأفق والبحر غير أذرع للفناء تدعوك وتناديك ... ولكن الناس من حولك يرون بهجة في كل شيء ... انظر إلى الأطفال والنساء والشيوخ والرجال ... في الماء وعلى الرمال ... كلهم مرحون ضاحكون ... لكأنهم يصغون إلى همسات أغنيات تتصاعد من كل شيء لتناديهم وتدعوهم إلى البقاء ...

. فتلمل الشاب ونفخ نافذ الصبر ضيق الصدر ، وقال :

— الحياة قبيحة في نظري ... أشريكتي أنت في حدة عيني وشبكة بصرى ؟! ... رواية في السينا لم تعجبني ، وأردت الخروج ... هل للمتفرج في القاعة أن يمسك بيدي ويجلسني على الرغم مني يقول : الرواية ممتعة ... أمكث حتى النهاية ؟! ... فقالت الفتاة بعنف :

— لا أحد يمسك بيدك ... تفضل ... مت ...

وابتعدت عنه وانتحت ناحية من الصخرة ، ولبث هو لحظة في مكانه بلا حرك ... ثم تزحزح قليلا ، واقترب منها وقال :

— ومن يضمن لي لو ألقيت بنفسي أنك لا تنقذيني ؟!

فنظرت إليه بعينين واسعتين :

— من يضمن لك ؟ ... هل يحتاج الأمر أيضاً إلى ضمانات

وتأمينات ؟ ... اسمح لي ... هذا كثير ... قلت لك اطمئن من
جانبى ومت كما تشاء ... ولكن يظهر أن الشجاعة فارقتك ...
وأنتك تلجأ الآن إلى التعلل والتحجج و « التمحك » فصاح
قائلا :

— أنا ؟ ! ... إنك لا تعرفيننى ... سترين ...

— لقد عرفتك ...

— كم الساعة عندك ؟ ... سأموت بعد ...

— وما لزوم الساعة ؟ ... قفزة وتصير فى الأعماق ! ...

— أنا حر فى اختيار الوقت ...

— أرجو أن تسرع من فضلك ، ولا تعطلنى أكثر من

ذلك ... وأخرجت مرآتها الصغيرة ، وجعلت تسوى شعرها

بتمهل وتأنق وعندية ، وتنظر إلى انعكاس صورته فى المرآة وهو

واقف كالصنم ، لا يدري ما يفعل ... ثم طفقت تدندن بأغنية

معروفة ... فقال لها بنبرة حنق :

— تغنين ؟ ...

— أنا فى انتظارك ! ...

لفظتها بهدوء دون أن تلتفت إليه ... فتركها فى حركة عنيفة

ويعم شطر البحر ، وصاح :

— ٥٥ —

— الوداع ! ... قبل أن ألفظ النفس الأخير ، أذكرك
بتعهدك ... إياك أن تحاولي ...
فقاطعته قائلة بفتور :

— اطمئن ! ...
فاتجه إلى البحر ومد يديه وصاح :
— واحد ... اثنين ... تلا ...

ولم يتم ... فقد انطلقت من فم الفتاة ضحكة عالية ...
فأرخت ذراعيه ، والتفت إليها ساخطاً ... فابتدرته قائلة ووجهها
في المرأة وإضبعها تمسح شفتيها :

— سامحني ... دهنت فمي بإصبع « الروج » أكثر من
اللازم ... انظر ! ...

— أهذا سلوك امرأة تشاهد رجلاً يحتضر !؟ ...
— أنا متأسفة ... لا تغضب ! ... سأتم زينتني فيما بعد ...
هلم ... امض فيما أنت فيه ... أنا الآن تحت تصرفك ...
تفضل ...

وأخفت مرآتها ، واعتدلت في جلستها ... ولكنه أطرق
إطراق اليأس ... لا من الحياة ؛ بل من الموت ... ثم جلس
ووضع رأسه في كفيه ، وبدا كأنه فريسة لتفكير ممض وحيرة

مضنية ... وأمسى منظره يستدر الإشفاق ويستثير الرثاء ...
فدنت منه الفتاة قائلة برفق :

— لا تعذب نفسك ... حاول أن تعيد النظر في الرواية :
أعنى الحياة ، فقد ترى فيها ...

فلم يدعها تكمل عباراتها ... وانتفض قائلاً :
— لا ... لن أرى فيها غير سخيّف وقبيح ... أنت لا ترين ما
أرى لأنك لا تفكرين برأسك ... وأغلب الناس مثلك ...
أندرين ما الحياة ... إنها مرآة ... لا كمرآتك تعكس لك وجهاً
جميلاً ... ولكنها مرآة من مرايا « اللونا برك » تعكس الحقيقة
طويلة وقصيرة ، ومنتفخة ونحيلة ... لقد تأملت فوجدت أنه لا
توجد في الحياة حقيقة ثابتة ، فما نسميه الخير والجمال والعدالة
والحرية ... إلخ ... ليست سوى أشياء لا تحتفظ بصفاتها طويلاً
دون أن تتحول إلى جواهر جديدة عكسية مناقضة ... فالحرية إذا
امتدت في المسافة والبعد صارت عبودية ... والعدالة تمتد إلى
نهايتها فتصبح هي الظلم ... والجمال في امتداده ينقلب إلى قبح ،
والخير إلى شر ... حتى المواقع الجغرافية في هذه الدنيا ليست
ثابتة ... فإذا امتد الشرق إلى نهايته تحول فجأة إلى غرب ...
وحسن القمر أو الكواكب الذي يتغنى به الشعراء ينقلب إلى هول

قبيح إذا تغيرت الأبعاد ... لا توجد في الحياة حقائق ثابتة ... كل شيء أبعاد ومسافات ... أين الحقيقة فينا في هذا « اللونا بارك » ؟ . إن مرآته تعكس لنا صوراً تختلف في الطول والقصر ، والبدانة والنحافة ، والحسن والقبح كلما غيرنا البعد والمسافة بيننا وبين المرأة ... وكانت الحقيقة خارج « اللونا بارك » بعيدة عن تلك المرأة ! ... فهل أنا مخطيء إذا سميت إلى الخروج لأبحث عن حقيقة وجودى ؟ ... ما قولك الآن ... أما زلت مصرة على مخالفتى فى الرأى ؟ ...

فسكتت الفتاة لحظة ... ونظرت إليه تتأمله ملياً ثم قالت :

— هل تشكو من إمساك مزمن ؟ ...

— نعم ... كيف عرفت ذلك ؟ ...

قالها سريعاً ، ولكنه لم يلبث أن فطن للمفارقة ... فتجهم وهم بعتابها وانتهارها ، فليس هذا هو التعليق اللائق بتفكيره العميق ... ولكنها أسرعت تقول بلطف :

— أتدرى لماذا تفكر فى الانتحار ! ... هذا طبيعى ... أنت

تصعد فى القمم ... ألا تلاحظ أن أولئك الذين يصعدون الهرم الأكبر ، يشعرون بدوار ، ويحسون كأن الأرض تجذبهم وتناديهم ؟ ... ولولا أيد تسندهم لسقطوا ... أو ألقوا بأنفسهم

وهم لا يشعرون ... ولكن من المستحيل على من يمشى فوق الأرض أن يشعر بدوار المرتفعات الذي يغرى بالوقوع ! ...
عندى لك علاج لدوار المرتفعات ... أتدرى ما هو ؟ ... أن تتعاطى بعض التفاهات ! ...

فلم يكذ الشاب يسمع منها ذلك حتى ثار :
— التفاهات ؟ ... أنا الذى اعتدت التفكير والتأمل طول العمر !؟ ...

فقلت هادئة :

— لماذا تجعل للتفكير هذه الأهمية فى الكون !؟ ...
— ماذا تقولين ؟ ...

— اسمع ! ... اذهب وازدرد « كوزين » ذره مشوية على « الكورنيش » واملاً أمعاءك بنصف أقة خيار أخضر بقشره ...
— يا حفيظ ! ...

— وتزوج امرأة وتناكفها وتناكفك ... وتملأ جزءاً من حياتك بالسخف والقرف والخلف ...
— أتزوج !؟ ...

— وإذا طلبت منى هذه التضحية لعلاجك .. فأنى أقدم نفسى كأنها دواء من « الأجزاء الخانة » فى زجاجة عليها ورقة ...

— ٥٩ —

— حمراء ! ...

ونفض من فوره مستويًا على قدميه ... ولم تشعر الفتاة إلا والشاب في البحر يتخبط بين الأمواج ، وقد ألقى بنفسه بلا تردد قبل أن تفتن إليه ... فارتبكت هي لحظة لا تدري ماذا تصنع ... إلى أن دفعها غريزتها عن غير وعي ... فألقت بنفسها خلفه في الماء وانتشلته وجذبتة إلى الصخرة ... وأسعفته ... فثاب إلى رشده وفتح عينيه ووجد نفسه بين ذراعيها ... فقال مرتاعاً :

— أنت ؟ ...

فقالت باسمه :

— ألا تريد أحضان الموت ؟ ...

— نعم ...

— أنا الموت ! ..

وكانت الدنيا ! ..

لماذا تمرد إبليس ؟ ... قصة ذلك معروفة ، جاءت بها الكتب السماوية ولا سبيل إلى الشك فيما روت ... ولكن خيال الروائي يجنح أحياناً إلى اختلاق صور أخرى للحادث الواحد ، ولا بأس من عرض إحدى هذه الصور على سبيل التفكه ... لا الاعتقاد ...

جاء في تاريخ أبي الفدا أن إبليس قبل أن يرتكب المعصية ويناهض ربه ، كان اسمه « عزازيل » ... وكان من أشرف الملائكة من أولى الأجنحة الأربعة ... وكان رئيس ملائكة السماء ، وكان خازناً على الجنان ... وكان له سلطان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهداً وأكثرهم علماً ، وأن الله لما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على الملائكة ، فوقع في صدره : « إنما أعطاني الله هذه المزية لى على الملائكة » ...

وتبدأ قصتنا هذه المخترعة وبعد أن تم خلق آدم ، خلقه الله

بيده ... إذ لبث جبريل فى الأرض لىأتبه بطين منها يصنع منه آدم ... فلما مد جبريل يده إلى الأرض فزعت وقالت : أعوذ بالله منك أن تنقص منى ، فرجع الملاك ولم يأخذ ... فبعث الله ميكائيل فكان حظه مثل حظ جبريل ... فبعث الله فى آخر الأمر ملك الموت ... فما كادت الأرض تقول له : أعوذ بالله منك أن تأخذ منى ... حتى قال لها : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمر ربي ... ومد يده وقبض من وجه الأرض قبضة ... ولم يأخذ من مكان واحد ، بل أخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء ... ولذلك خرج بنو آدم مختلفين فى اللون ... وخلق الله من هذا الطين جسد آدم ، فلما مرت به الملائكة فزعوا منه ... حتى إبليس ... كان يمر به فيضربه فيصوت الجسد الأجوف كما يصوت الفخار ، وتسمع له صلصلة ... ثم نفخ الله فيه بعد ذلك من روحه ... فلما دخلت الروح فى رأسه عطس ... ولما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ... فلما دخلت الروح فى جوفه اشتهى الطعام. وأتم الله خلق آدم ... فجاء خير ما خلق وأعجب ما أبدع ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لهذه الآية الرائعة ، فسجدوا كلهم إلا إبليس ... نظر إلى تلك المعجزة ملياً ، ثم لوى عنقه وهز كتفيه ، ومضى فى الجنة يسير مستخفاً

— ٦٢ —

بما رأى ، مستكبراً أن يقع ساجداً لمخلوق من طين ، وقابلته
الحية الذكية وقد علمت بالخبر ، فاستوقفته صائحة :

— يا عزازيل ! ... مالك ؟ ... لماذا لم تفعل كما فعل
الآخرون ؟ ...

— أنا أسجد لهذا الشيء ؟ ! ...

— لا تدع الحسد يأكل قلبك ... اعترف أنه عمل عظيم ...

— ماذا فيه من عظم ؟ ... أهو ذلك الطين الذى خلق
منه ؟ ...

— ذلك الطين أفضل على كل حال من النار التى خلقت
منها ...

— ماذا تقولين أيتها الحية الخبيثة ؟ ...

— إن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ...

— أولاً تعلمين ماذا فى النار ؟ ...

— ماذا فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق ؟ ...

— ما أنتِ إلا النفاق صور وكور ! ... ألا أن الله هو الذى
خلقه ؟ ...

خلقه بيده ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شيء ...

وهذا شرف ما بعده شرف ...

— ٦٣ —

— علمه أسماء كل شيء ؟ ...

— نعم ... لأنه أعطاه العقل الذى به يعلم ويفهم ، وأعطاه النفس التى بها يعى ويدرك ، وأعطاه القلب الذى به يشعر ويحب ... إنه ليس على غرار الملائكة ، مخلوقاً يفنى فى العرش كل الفناء ... إنه متصل منفصل ... إنه مندمج مستقل ... إنه قدير على أن يفكر بنفسه ، وأن يعيش حياته ... وأن يقرر فى بعض الأحيان مصيره ؛ كأنه مصغر إله ... أو صورة صغيرة لإله ...

— لقد نفخ فيه من روحه ! ...

— أرايت ! ... هو ذاك يا عزازيل ... آنا الألوان أن تفهم ذلك ...

— آنا الألوان أن أفهم أن فى إمكاني أنا أيضاً أن أصنع شيئاً أنفخ فيه من روحى ! ...

قالها كالمخاطب لنفسه ، ومضى سريعاً حتى لا يطرق سمعه صوت ضحكات الحية الساخرة ...

انطلق إبليس فى كل مكان يبحث عن الطين حتى وجده ، فتناوله فرحاً ، وجعل يسوى منه مخلوقاً على مثال آدم ، وتمت الصورة ، وانتظر أن تنبض أو تنهض ؛ فلم يجد إلا جماداً لا حراك

— ٦٤ —

به ... فترك ما صنع وانطلق يائساً ساخطاً ، يحمل المرارة والخيبة ويريد أن يكتم ما وقع ... ولكن الحية الذكية علمت بالأمر فبادرته قائلة :

— فهمت الآن أن الخلق ليس هيناً ؟! ...

— اخرسى ! ...

— آدم ليس هو الطين ... بل « الحياة » التى أودعت الطين ... ذلك هو « روح الله » ... هذا هو سره الذى لم يكشفه أحد ، حتى ولا أنت الذى زعمت أنك استرقت واجتهدت واطلعت على أكثر علمه ...

— سر الحياة ! ...

— نعم .. الذى يودعه الطين أو التراب أو النار أو الماء ، أو أى عنصر من العناصر ... ذلك هو السر الأعظم ! ...

— كيف الحصول عليه ؟ ...

— هذا مالا سبيل إليه ... تلك صفة الله التى لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها ... إنها روحه التى لا تعطى ولا تفقد ولا تسلب ... وهو وحده الذى يستطيع أن ينفخ منها بإرادته فى الكائنات ...

— لا بُدَّ لي مع ذلك أن أخلق شيئاً ...

— ٦٥ —

— شيئاً حياً ؟ ...

— نعم ...

— لن تستطيع أن تخلق شيئاً حياً من مادة ميتة ...

— احرصى أيتها الثرثرة ! ...

وتركها وانصرف مطرقاً مفكراً ... ومشى فى الجنة على
غيري هدى ... وإذا المصادفة تقوده إلى شجرة وارفة الظلال
دانية القطوف ... وإذا هو يبصر تحتها آدم راقدا غارقاً فى
نعاسه .. فوقف على رأسه يتأمله ... وخطرت له فكرة أنعشته
بالأمل .. حقاً إنه لن يستطيع أن يصنع مخلوقاً حياً من مادة ميتة
كالطين ... ولكنه قد يستطيع أن يخلق كائناً حياً من شىء
حتى ... فلو استطاع أن يأخذ من جسم آدم الحى قطعة ؛ لكان
فى الإمكان أن يصنع الباقي ... ولكن ماذا يأخذ ؟ ..
الأنف ؟ ... هذا عضو ظاهر ، وإذا استيقظ آدم بغير أنفه ، فلن
يكون هو الأضحوكة ... بل الأضحوكة إبليس الذى سيضبط
متلبساً بالسرقة ، وسوف تكون قهقهة الحية عندئذ عالية
صاخبة ...

كلا ... فليبحث عن عضو غير الأنف ... ماذا ؟ ...
القدم ؟ ... وبماذا يمشى آدم ؟ ... اليد ؟ ... وبماذا
(أرئى الله)

يأكل ؟ ... اللسان ؟ ... وبماذا ينطق ؟ ... كلا ... يجب أن يكون العضو المسروق غير ظاهر وغير نافع ... وتحسس إبليس برفق جسد آدم ، فوجد الأضلاع ... إنها ليست ظاهرة ، وهي كثيرة لا تظهر فيها السرقة إذا استلب أحدها ... فليأخذ هذا الأقصر الأيسر من بين أضلاعه ؛ ففيه تتوافر كل الشروط ... فهو مستتر منزو لا فائدة فيه ، ولن يشعر بفقده ، حتى ولا آدم نفسه ...

واستل إبليس الضلع الحى بخفة ومهارة ، وسواه على صورة آدم ، ولكنه تصرف قليلا ، ووضع شيئا منه ... وانتصب ذلك المخلوق الجديد يتمطى ... وعندئذ ارتفع صوت من بين الأشجار يقول :

— مرحى ... مرحى ! ...

فالتفت إبليس ، فإذا هى الحية واقفه على رأسه ، مطلعة على فعله ، فبادرها بلهجة الظافر :

— ما رأيك الآن ؟ ...

فقالت فى ابتسامة خبث ، وهى تنظر إلى المخلوق الجديد :

— بديعة حواء ! ...

— ٦٧ —

فانظر إبليس إلى الحية مستفهماً مستغرباً

— « حواء » ؟ ... لماذا تسمينها هكذا ؟ ...

فأجابت الحية بمكر ودهاء :

— لأنها صنعت من شيء حَيٍّ ! ...

— أبصرت إذن كل ما حدث ؟ ...

— وسأكنم سرك ... لا تخش شيئاً ...

— أسألك نفسى دائماً : لماذا لا تكون أصدقاء ؟ ... إلى أحمل

لك أيتها الحية كل تقدير ، وأحمل لكائك كل إعجاب ...

أتريد أن أخصبك بسر آخر ؟ ... لقد كنت أفكر فيك وأنا

أصنع هذا المخلوق الذى سميت « حواء » ! ...

— كما كنت تفكر فى نفسك ...

— أحقاً ما تقولين ؟ ... أترين فى هذا المخلوق شيئاً منى ؟ ...

— بلا شك ... انظر إلى حركاته ... وإلى رشاقتة ... بل إلى

بريق عينه ... إن فيه أثراً من الطين ، ولكن فيه أيضاً لفحة من

النار ... انظر ... انظر ... فى حواء بعض ما فىك : الطيش

والخفة والسرعة والإحراق ...

وعندئذ دوى فى أرجاء الجنة صوت ارتعدت له فرائص إبليس

والحية ... فهربا مذعورين جزعين ... واستيقظ آدم من سباته ،

فألقي حواء بقربه ... فلم يفهم من أمرها شيئاً ... ولبت لحظة
يتأملها دهشاً ... إلى أن ألقي في روعه علم خفي بما ينبغي أن
يفعل ، فليسكن إلى حواء إذا شاء ... ولكن الحذر كل الحذر أن
يقربها أو يلمس جسدها جسده ...

وعلم إبليس بالأمر ... فأقبل على الحية يسأها :

— لماذا حرم على آدم لمس حواء ؟ ...

فأجابته على الفور :

— أونسيت أن بها شيئاً من النار ؟ ...

ففكر إبليس قليلاً ، ثم قال بارتياح :

— لا أظن هذا كل شيء ... إنما المقصود فيما أرى هو أمر

أخطر من هذا ... ترى ماذا يحدث لو امتزج هذان
المخلوقان ؟ ...

ففكرت الحية لحظة ... ووقع بصرها مصادفة واتفاقاً على

عش طائر في أعلى الشجرة ، فصاحت :

— يحدث لهما ما يحدث لهذا الطير ... يتناسلان ...

— يتناسلان ؟ ...

ويخرج منهما مخلوق ثالث ...

فصاح إبليس :

— نعم ... هنا المسألة ... وهنا علة الخطر ... ولكن لماذا لا يراد خروج هذا المخلوق الثالث ؟ ...

— لأنه سيكون فيه شيء منك ... هذا مفهوم بالبداية ... إن آدم ، ذلك العمل العظيم الذى يفخر به الخالق ... تلك الآية التى نفخ فيها من روحه ... يجب أن تبقى هكذا بمفردها صورة خالدة ناطقة بمقدرة المبدع الأعظم وكمال الأبدى ، الذى لا يشوبه نقص ، ولكن جئت يا صديقى إبليس تفسد هذه الروعة ... وتريد أن تستخرج من هذه الصورة المفردة نسخاً مشوهة ! ...

— هذا لم يخطر لى حتى الآن حقاً ! ... ولكنه لو حدث لكان بالنسبة إلى عملا راعياً ... وهل هناك حقاً أمهر من أن أملاً الدنيا نسخاً من ذلك العمل العظيم الذى يفخر به الخالق ! ...

— لا تسترسل فى أحلامك وأوهامك ... هذا لن يحدث أبداً ...

— لماذا ؟ ...

— لأن لآدم ملكة عجيبة تسمى « العقل » ، دائمة التيقظ تمنعه من الزلل والوقوع فى المحذور ...

— العقل !؟ ... أو ما من سبيل أن يدهم النوم هذا العقل لحظة !؟ ...

— ٧٠ —

- إذا نام ذلك العقل ، فقد تم لك ما أردت ...
- ساعدينى يا صديقتى الحية الذكية ! ...
- لماذا تريد أن تعرضنى لغضب خالقنا الأزلى ١٩ ...
- إنه لن يغضب ... لماذا خلق لك الذكاء إذن ؟ ... لقد أعطاك الذكاء كى تستعمليه ... هلمى يا صديقتى ساعدينى ...
- قولك مقنع حقاً ... ليس أشق على النفس من أن نعطى شيئاً لا نسعمله ... أمعقول أن تكون لى هبة لا فائدة منها ١٩ ...
- بل ليست تلك ولا ريب إرادة الخالق الذى أعطاك الذكاء يا صديقتى ، إنه أحكم من أن يعطى شيئاً لغير شىء ...
- صدقت ... اسمع إذن ... هنا شجرة فيها فاكهة إذا نضجت واختمر عصيرها أحدث عجباً ... فقد رأيت بعض الطير ينقرها فتحدث له أحوال غريبة ... ويقع فى نشوة تفقده اتزانه ...
- دلينى على هذه الشجرة ...
- وعند ذاك دوى فى الجنة ذلك الصوت العظيم ، فهرب إبليس والحية مذعورين . ووقع آدم وحواء على وجهيهما ساجدين ... ثم ألقى فى روعهما ألا يقربا هذه الشجرة ... ولم يقنط إبليس ؛ فقد عاد بعد قليل إلى الحية يقول :

— ٧١ —

— ما العمل ؟ ...

— دعنى ... دعنى ... لن أشاركك بعد الآن فى مشروعاتك .

— وماذا ستصنعين إذن ؟ ...

— لا شىء ...

— وهل يطيق ذهنك المتقد أن يخمد أو يكسل ؟ ...

— إنى أخشى الخطيئة ...

— الخطيئة لثلى ومثلك ألا نطيع ملكاتنا ومواهبنا ...

— لا تقنعنى بهذا الكلام البارع ...

— أنت كائن حى ... أليس كذلك ؟ ... وأنا كائن حى ...

هل نشك فى ذلك ؟ ... الحياة التى فىنا هى وحدها التى تسيرنا كما نريد هى ، نحن لا نخضع إلا لطبيعة الحياة التى ركبت فىنا ... لم يوضع فى كياننا « عقل » كما وضع فى آدم ... ذلك العقل أو العقل والقيد أو الحبال التى تكبل حياته وتحد من نشاطه ، وتسيره طبقاً للأوامر والنواهى التى تصدر إليه من هنا ومن هناك ! ... افعل ما تمليه طبيعتك يا صديقتى ، فأنت حرة من كل عقل ...

— مثلك ...

— مثلى ...

— لقد حلت معضلتك إذن ... إن فى حواء ولا ريب شيئاً منك ... لن نجد فيها إذن الكثير من ذلك العقل الذى نخشاه ... — يا لكائك النادر أيتها الحية العزيزة ! ... نعم ... نعم ... لاشك أن حواء فيها من روحى ... إنها ستخضع إذن للحياة والطبيعة والغريزة أكثر من خضوعها للعقل ... لقد انتهى الأمر إذن ... إنها ستفهمنى وستصغى إلئى ... وستأكل من الفاكهة ...

— وفيها من قوة إقناعك ، وبراعة إغرائك ، فهى ستظفر بإقناع آدم وإغرائه أن يأكل كما أكلت ... ويصنع كما تريد هى أن يصنع ...

فتهلل وجه إبليس فرحاً ، وصفق طرباً ، وجرى من فوره يبحث عن حواء ...

وتم بعد ذلك ما هو معلوم ... فقد ضعف آدم وأطاع حواء وأكل معها من الشجرة ، وانتشى من عصيرها وثل ، وامتزج بحواء ، وطردا من الجنة إلى الأرض ... وأنبثها الجنين الأول ، وتكاثرت الذرية وتعددت « النسخ » وجاء قابيل فقتل هابيل ... وكانت الجريمة الأولى ... وعرف الشر على الأرض ...

— ٧٣ —

واختلطت الصور الجيدة بالرديئة ؛ كما اختلطت الفضيلة
بالرذيلة ... وامتزجت النسخ الأصيل بالدخيلة ... ولم يعد في
الإمكان فرز وريث آدم من وريث حواء ... ولا الكمال من
النقصان ... ولا النور من النار ... ولا لمعة الحق من خدعة
الشیطان ... امتزجت في الآدمی الواحد كل عناصر الخير
والشر ، والحسن والقبح ، والحقارة والسمو ، والتفاهة
والعظم ، والعدل والظلم ؛ والعقل والطيش ، والضعف
والبطش ...
وكانت الدنيا ...

دولة العصفور ! ..

دولة عجيبة ... تبسط أجنحتها الصغيرة على الدنيا ...
وتنشر أفرادها في كل البقاع ، لا تخفى من أرض ، ولا تغلو
منها سماء ... كلها في عين الوقت إذا رأت عين الشمس
زقزقت ، أو إذا خرج الصبح من جوف الليل خرجت هي من
الأعشاش ... من هو المنادى الخفى الذى يوقظها جميعاً في
لحظة واحدة ! ... فتهب إلى العمل وهي تغنى ... فلا كسلان
متخلف ... ولا متثائب مترف ...

قال عصفور صغير لأبيه ذات يوم :

— ألسنا نحن يا أبت خير المخلوقات ؟ ...

فهز العصفور الكبير رأسه وقال :

— هذا شرف لا ينبغي لنا أن ندعيه ، هنالك من يزعم لنفسه

هذا الحق ...

— من هو يا أبت ؟ ...

— الإنسان ...

— الإنسان ؟ ... ذلك الذى يـرشق أعشاشنا
 بالحجارة ؟ ... أهو خير منا ؟ ... أهو أسعد منا ؟ ...
 — ربما كان خيراً منا ... ولكنه ليس أسعد منا ...
 — لماذا يا أبت ؟ ...
 — لأن فى جوفه شوكة تخزه دائماً وتعذبه ...
 — يا له من مسكين ! ... ومن الذى وضع فيه هذه
 الشوكة ؟ ...

— هو نفسه بيده ... هذه الشوكة نسمى الجشع ...
 — الجشع ؟ ... ما هو الجشع ؟ ...
 — هذا شىء لا تعرفه أنت أيها الصغير ... بل قد لا يعرفه أحد
 فى دولة العصافير ... ولكنى أنا عرفته لطول ملاحظتى
 للإنسان ، ولوقوعى فى قبضته أكثر من مرة ... إنه الشىء الذى
 يجعله لا يشبع ولا يطمئن ولا يرتاح ... نحن نعرف الشبع ...
 وهو لا يعرف إلا الجوع ... نحن نعمل للرزق ، وهو يريد أن
 يرزق ولا يعمل ، نحن لا نعرف استغلال عصفور لعصفور ...
 فعصافير الأرض تخرج كلها للعيش فرحة مغردة متواضعة
 متآخية ، وهو لا يحلم إلا باستغلال أخيه الإنسان ليعمل بدلا منه
 منذ الصباح الباكر ، ويتمدد هو فى فراشه يتمطى ويتراخى

ويثاءب حتى الضحى ... فلا يرى الشمس الذهبية ، ولا الفجر
الفضى ، ولا يستنشق الهواء الندى ... إنما شمس ذهب
مرصود فى المصارف ، وفجره فضة تزين أدوات حجرته
وهواؤه طمع يملأ صدره ...

وسكت العصفور المجرب لحظة ، ونظر إلى ابنه
الناشىء فوجده يصغى إلى هذا الكلام إصغاءه إلى أسطورة
خيالية ... إنه يدرك ولا يصدق ، ويعى ولا يعتقد ... تلك أشياء
لم يرها بعينه ، ولم يصادفها بعد فى أحداثه الصغيرة ... ولم
يمارسها حتى الآن فى حياته القصيرة ...

ورأى أبوه منه ذلك فقال :

— نعم ... لا بد أن تشاهد بعينيك ... إذا رأيت يا بنى إنسانا
مقبلا فأخبرنى وأنا أريك منه ما يقنعك ...

ولم يمض قليل حتى أقبل رجل ، فما كاد العصفور الصغير
يراه حتى صاح بأبيه ينبهه ... فقال الأب لابنه :

— سأوقع نفسى فى يده ، وعليك يا بنى أن تراقب ما
سيحدث ...

— تقع فى يده يا أبى ؟ ... وإذا حدث لك ضرر ؟ ...

— لا تخف ... إنى أعرف طبائع الإنسان ، وأعرف كيف

— ٧٧ —

أسخر منه وأفلت من يده ...

وغادر العصفور المحنك صغيره ، وهبط من فوره حتى وقع
على مقربة من الرجل ، فصاده الرجل فرحاً ، وضم عليه أصابعه
حرصاً منه على الغنيمة ... فقال له العصفور وهو في قبضته :

— ماذا تريد أن تصنع بي ؟ ...

فقال الرجل منهوماً :

— أذهبك وآكلك ...

فقال العصفور الماكر :

— إنني لا أشبعك من جوع ، ولكنني أستطيع أن أعطيك ما
هو أنفع من أكلني ...

— ماذا تعطيني ؟ ...

— ثلاث حكم ، إذا تعلمتها نلت بها خيراً كثيراً ...

— اذكرها لي ...

— لي شروط : الحكمة الأولى أعلمك إياها وأنا في يدك ،
والحكمة الثانية أعلمك إياها إذا أطلقتني ، والحكمة الثالثة
أعلمك إياها إذا صرت على الشجرة ...

— قبلت ... هات الأولى ...

— لا تتحسر على ما فاتك ...

— ٧٨ —

— والثانية ؟ ...

— أطلقني أولاً حسب الشرط ...

فأطلق الرجل من يده العصفور ، ووقف العصفور على رتبة بقربه وقال :

— الحكمة الثانية : لا تصدق ما لا يمكن أن يكون ...

ثم طار إلى الشجرة وهو يصيح :

— أيها الإنسان المغفل ... لو كنت ذبحتني لأخرجت من

حوصلتي درتين زنة كل درة عشرون مثقالاً ...

فعض الرجل على شفتيه عضّة أدمتهما ، وتحسر حسرة شديدة ، ونظر إلى العصفور وقد صار على الشجرة ، وتذكر شروطه ، فقال له بصوت ينزف منه العذاب والتلهف :

— هات الحكمة الثالثة ...

فقال العصفور باسمّاً ساخراً :

— أيها الإنسان الطماع ! ... لقد أعماك جشعك فنسيت

الاثنين ، فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ... ألم أقل لك لا تحسر على

ما فاتك ، ولا تصدق ما لا يمكن أن يكون ... إن لحمي

وعظمي ودهني وريشي لا يزن عشرين مثقالاً ... فكيف تكون

في حوصلتي درتان وزن كل واحدة عشرون مثقالاً ؟ ...

— ٧٩ —

وكان منظر الرجل مضحكا ... لقد استطاع عصفور أن
يلعب بإنسان ... والتفت الأب إلى ابنه العصفور الصغير قائلا :
— والآن رأيت بعينيك !؟ ...

فقال الصغير وهو يراقب حركات الرجل ويلاحظ ما به :
— نعم ... لست أدري هل أضحك منه أو أبكى عليه ! ...

فكرة سنة « مليون »

وضعت هذه القصة فى سنة مليون « ميلادية » ! ... فى ذلك العصر صارت الدنيا الى وضع يتعذر على الخيال تصويره ... فلقد اختفت الحروب ، وانقرض المرض ، ومحي الموت ... نعم لقد تغلب العلم على الموت منذ مئات الآلاف من السنين ... لم يعد هناك قوم يموتون .. لم يعد هناك قوم يولدون أيضاً ... فالزواج للنسل انقرض كذلك منذ هذه الأحقاب ، فالعلم هو الذى يجهز بكثريا النسل الآدمى فى معاملته ... ولقد ظل الأمر يجرى على هذا النهج ألوفاً من الأعوام ... إلى أن كف الناس عن الرغبة فى إنتاج بشر جديد فما من ضرورة تقضى بزيادة الناس ماداموا لا يموتون ... لقد أصبح البشر الموجودون شأنهم شأن عناصر الطبيعة الخالدة التى لا تتغير ، إنهم باقون دائماً كتلك الشمس الباقية وذلك القمر وذلك البحر وذلك الجبل ... لا شئ يخبو فيهم أو ينقص منهم ... فخلاياهم تتجدد وغدهم لا تعرف البلى ... كلمة الشيخوخة

لم يعد لها مدلول فى لغة ذلك العصر ... ولا كلمة الشباب ...
كل ما يعرفه أهل ذلك الزمان هو أنهم « موجودون » وهل
يستطيع البحر ... لو كانت له لغة ، أن يتحدث عن الصبا أو
الهرم ؟ ...

فى صيف ذلك العام — المليون بعد الميلاد — دخل عالم
من علماء طبقات الأرض على عالم من علماء الكيمياء وقال له :
يخيل إلى أنى سائر نحو اكتشاف خطير ، سوف يدهش الناس
جميعاً ... لقد عثرت على عمق بعيد فى جوف الأرض على هذا
الأثر ... انظر ... وأخرج بحرص وحذر من حقيته الصغيرة
جمجمة آدمية ! ... قدمها إلى صديقه الكيميائى ... فتناولها
وفحصها قائلاً :

— ما هذا ؟ ... هيئة رأس يقرب من رؤوسنا ! ... لولا
حجمه الصغير ... ولولا هذا الشيء ...

وأشار إلى الأسنان والفم ...
فقال العالم الجيولوجى مصادقاً :

— نعم ... إن تاريخه يرجع إلى ستمائة ألف سنة ! ...
— عجباً ! ... وكيف تجرد هكذا من لحمه ودمه
وشرايينه ؟ ...

(أرنى الله)

— ٨٢ —

— هنا وجه الغرابة ! ...

— وأين بقية الجسم ! ...

— لم أعثر إلا على هذا الجزء ...

ووقف الرجلان مشدوهين أمام الجمجمة ... فهذا شيء جديد لا يوجد له نظير في متاحفهم ... فإن الحروب الذرية قامت فى الأرض منذ مئات الآلاف من السنين ؛ فقوضت متاحف العهود القديمة ومكتباتها ... فلم يصل إلى زمانهم إلا خلاصة التجارب العلمية التى على أسسها قامت دنياهم الجديدة ...

وظهرت على وجه العالم الكيميائى عين الحيرة التى ظهرت على وجه قاييل يوم رأى الموت لأول مرة ينخل فى هاويل المقتول ...

وهز عالم الجيولوجيا رأسه ، ولسن الجمجمة بأصبعه ، وقال :

— لا شك أن هذا إنسان مثلنا ... ولكن ... كيف وصل إلى هذه الحال ؟ ... هنا السر ...

نعم .. لا بد أن تكون هنالك قوة تستطيع أن تحول الحركة فى الإنسان إلى هذا النوع من الجمود ! ...

قالها العالم الكيميائي وهو يفحص العظام بيده ...
— الحركة ؟ ... الجمود ؟ ... يبدو لي أنه لا بد أن تكون
للحركة نهاية ! ...

— كيف ؟ ...
ألم تسأل نفسك مرة : « وأخيراً ... ماذا بعد ذلك ؟ ... »
لقد سألت نفسي عن ذلك يوماً ... ربما كان علم طبقات
الأرض الذي أمارسه يدفعني إلى البحث في الماضي، وهذا
البحث في الماضي يحملني على التنقيب في المستقبل ... ما
مستقبلنا ؟ ...

— مستقبلنا !! ...

— نعم ... مستقبل جنسنا الإنساني ؟ ...
— ماذا في رأسك ؟ ... شيء في رأسك قد اختل !! ...
لفظها عالم الكيمياء وهو يحدق في زميله مرتاباً ... فكلمة
« المستقبل » عجيبة الوقع على آذان القوم في ذلك العصر ...
ليس هنالك غد بالنسبة إليهم ... وليس هنالك ليل ولا نهار ولا
نوم ... فالضوء الصناعي أغناهم عن الشمس ، والأغذية
الكيميائية أغنتهم عن النوم ... إنهم حركة دائمة كحركة القلب
لا تعرف الهمود ولا الجمود ... لا وعى لهم لما يسمى

« الغد » ... أما وعيهم للأمس فلا يتجاوز عشرات الألوف من الأعوام ... لم يتغير خلالها الوضع عما هم عليه كثيراً ... فهم إذن لا يعرفون ولا تستطيع مداركهم أن تعي غير زمن واحد ، هو « الحاضر » الذى ييسط جناحيه الهائلين على أحقاب تبدو كلها لكيانهم الخالد كأنها يوم واحد ..

وشخص عالم طبقات الأرض يبصره إلى الفضاء ... وكأنه يحاول أن يرى فى الضباب ، وهمس كالمخاطب نفسه :

— ما دام هناك وجود ، فلا بد أن يكون هناك عدم وجود ...

— عدم !؟ ...

— نعم ... العدم ...

فانتصب عالم الكيمياء واقفاً ، وقال ...

— العدم ؟ ... ما هو العدم ؟ ... لأول مرة أسمع هذه

الكلمات العجيبة ... ماذا جرى لك أيها الزميل !؟ ...

— ألا يتنبأك أحياناً هذا الشعور ؟ ...

— أى شعور !؟ ...

— الرغبة فى أن لا توجد ...

— من العسير على ذهنى فهم ما تعنى ، أو فهم ما بك ... شيء

فيك قد اختل ... شيء فيك قد اختل ! ...

وأسرع العالم الكيميائى يترك المكان كالهارب ، وذهب ، من فوره إلى

دار هيئة العلماء ، فعرض عليهم أمر عالم الآثار ... وما نطق به من ألفاظ غريبة المعنى مبهمة المرمى ... فتلقوا الخبر بدهشة ، وطلبوا حضوره ، فلما مثل بينهم ، سأله بياناً عن تصريحاته ، فقال :

— نعم ... إن وجودنا الدائم هذا لا بد أن يكون بعده شيء ! ...

— أى شيء تقصده ؟ ...

— الموت ...

— الموت ؟ ما هذه الكلمة ...

— لست أدري ... لقد تعبت من نفسى الآن ... إنه إلهام ... إنى مؤمن أنه يوجد شيء ؛ فلنسمه : « الموت » ... لا بد أن نصل إليه يوماً ... اصدقونى القول أيها العلماء ... ألم يشعر أحدكم مرة بإغفاءة طارئة عابرة كخفقة الجفن ، أحس خلالها لذة وراحة من نوع غريب ؟ ... هذه اللمحة يمكن أن تطول ويمكن أن تمتد عبر الزمن حتى تصبح « عدم وجود » ... وتنقلب إلى ذلك الشيء الذى أسميه « الموت » ...

فهز العلماء رؤوسهم أسفاً ، وأطرقوا خجلاً ... وقد أدركوا

أن زميلهم قد شط به الخيال ... ورأى أحدهم أن يطالبه بالدليل فقال :

— لا تنس أنك عالم لا يجوز له أن يجرى وراء وهم أو يستجيب إلى مجرد شعور ، قدم لنا برهاناً علمياً على أن هذا الذى تسميه « الموت » ممكن أن يوجد ١٩٠ ...
فأخرج عالم طبقات الأرض « الجمجمة » من حقيته ، وعرضها على العلماء صائحاً :
— أيها الزملاء الأجلاء ... إن « الموت » قد وجد يوماً على هذه الأرض ... وهاكم الدليل ! ...

فتجمع العلماء على الجمجمة يفحصونها دهشين أول الأمر ، ثم لم يلبثوا أن تبادلوا نظرات السخرية والشك والارتباب ... ونبذها واحد منهم وهو يقول :

— هذا ليس دليلاً على ما تزعم ، ولكنه دليل على أنه قد وجد على هذه الأرض من قديم قوم وصلوا فى العلم إلى ما لم نصل إليه اليوم ... فنحن ، يوم كنا نصنع بشراً فى المعامل منذ مئات القرون ، كنا نربى « النطفة » كما نربى البكتريا .. ولكن أقوام ما قبل التاريخ ، كانوا فيما يظهر ، يصنعون الهيكل الآدمى صنعاً ... ثم ينفخون فيه بعد ذلك ... هذه العظام التى تعرضها

علينا كانت « مشروع » خلق آدمى لم يتم صنعه لسبب من الأسباب ! ...

وافقت هيئة العلماء على هذه النظرية بالإجماع ، وحذروا عالم الجيولوجيا من الاسترسال في أمثال هذه الترهات ، خوفاً على بسطاء العقول في المجتمع ممن يستهويهم جو الخرافات ... وانصرف العلماء عن زميلهم الجيولوجى ، وتركوه غارقاً في خزيه وخيبته ...

ولكن اليأس لم يتطرق إلى قلبه ... لقد كان شعوره الداخلى يوحى إليه أنه صادق النظر ... ومضى إلى صديق له يأنس إليه ويعول عليه ، من ذلك النوع الألفى الأرق من البشر ، الذى كان يطلق عليه « الأنثى » منذ خمسمائة ألف سنة ... يوم كان وجود هذا النوع ضرورياً لإيجاد هذا النسل ، أما بعد هذا التاريخ فقد زالت هذه الضرورة ... وبزاولها ضعف الاتصال بين النوعين لهذه الغاية ... حتى بلغ الأمر حداً اختفت معه الفوارق الجنسية بينهما ، بانتهاء الوظائف العضوية ... فإذا هما على مر الزمن قد صارا شبه نوع واحد ، لم يحتفظ أحدهما من خصال ماضيه بغير شىء من الرقة فى الطبع واللف فى التركيب ... ولم يعد المجتمع يميز بينهما أو يذكر ماضيهما . إنما هو

صنف واحد من الإنسان ، يطلق عليه اسم قاطن الكوكب الأرضى ... لأن الأرض كلها هى الأخرى أمة واحدة ومجتمع واحد ... يعيش فى كنف « لجنة من العقول المدربة » هى حكومة الكوكب التى تشرف على إدارة شئونه العامة ، وتنظيم أسباب الراحة لسكانه ... ذهب العالم الجيولوجى إلى صديقه اللطيف ، وقال له :

— هل تثق بى ؟ ...

— نعم ...

— هل تؤمن بى ؟ ...

— نعم ...

— إذن فاسمع ...

وروى له القصة ، وعرض عليه الجمجمة ، وشرح له ما يعتقد باسطقاً له فى الحجاج كلما رأى فى وجهه علامات الدهشة ، فهذا شئ خارق ... بعيد التصور ... لأن الألفاظ نفسها لا تؤدى إليه ... يجب أن تفسر معنى « الفناء » أو « العدم » أو « الموت » تفسيراً محسوساً ، وهو أمر لا قبل لأحد به فى هذا العصر ... فلا يوجد شئ يموت حولهم ... إنهم لا يذكرون وجود الحيوانات على الأرض ... فقد انقرضت كلها منذ مئات

الآلاف من السنين ... أبادتها الحروب الذرية والكيميائية التي
مسحت وجه الأرض مسحاً ، وحلقتها حلقة ، وغسلته غسلًا من
كل حيوان ونبات وطائر وسمك ... فلم يبق للإنسان غير جوف
الأرض يعيش فيه بمصانعه وبمعامله .. يطعم غذاء من غازات
كيميائية تطلق في البيوت « تستمد موادها من عناصر الجو
وإشعاعات الأجرام ... » فضمرت معدته القديمة واختفى
جهازه الهضمي وفمه وأسنانه ... فإذا هو رأس يفكر ، وأنف
يستنشق به غذاءه من الهواء ، وطعامه من الغازات ، ويدان
ضعيفتان وساقان هزيلتان لقلة الاستعمال ... لم يعد هناك فرق
بين إنسان وبحر وكوكب ... إنه مثلها خالد ... ومثلها لا حاجة
به إلى أن يعمل بيديه ليعيش ... بل إنه الآن شبه إله ... لا يلد ولا
يولد ... يجهل الموت ويعرف الأبد ولا يدرك الأمس ولا
الغد ...

وجد العالم الجيولوجي صعوبة في أن يصور لصديقه ما يخامره
من إحساس بنظريته ... لأن الأمر يستوجب شعوراً بالحدود
الزمنية ... ليس أصعب من أن تحدث « إلها » عن ماضيه أو
مستقبله فإن هذين الوصفين لا معنى لهما لمن « يوجد »
دائماً ...

وأصعب من ذلك أن تحاول إفهام « إله » خالد شيئاً عن
« البداية » أو « النهاية » ! ...

ونظر الصديق اللطيف إلى العالم الجيولوجى بسذاجة قائله :
— إني أصدقك ، ولكنى عاجز عن الفهم ...

— حقاً يا صديقى ... إنها لمشكلة ... ومن العسير أن أطلبك
بإدراك شعاع لا أتبينه أنا نفسى ... ربما كنت مخطئاً ... ربما كان
اشتغالى بتاريخ الطبقة الأرضية يخيّل لى أو هاماً ... إن علمى ذاته لم
يعد له محل ... ولم يعد له احترام فى نظر العلماء ... ولم يبق غيرى
حريصاً عليه متابعاً له ... فالعلماء يؤكدون ... أنه ليس هناك
شئ يسمى « التاريخ » لأنه لا يوجد خلف « حاضرنّا » الخالد
غير وهم المخبولين ... الحق أنى لا أدري ... هل أنا مجنون ؟ ...
أو أنى أرى شيئاً لا يراه غيرى ؟ ! ...
— إنك لست مجنوناً ...

— إنك تثق بى ... وهذا يسرنى ، ولكنه لا يقنعنى ... إني
أريد أن ترى ما أرى ...

— سأحاول ... ساعدنى ! ...

— نعم ... أساعدك ... قص على حياتك ! ...

— حياتى ؟ ! ... حياتى هكذا ... هكذا دائماً ...

هكذا ... إنك تعرفها ... لا شىء فيها يتغير ...

— نعم ... لا شىء فيها يتغير ! ... ولكن أتذكر ماذا كان أول الأمر ؟ ..

— أتذكر ؟ ... ما معنى أتذكر ؟ ...

— صدقت ! ... لا يمكن أن تكون لنا ذاكرة ما دمنا لا نعى الماضي ولا التاريخ ...

لماذا تكذبك أيتها الصديق في هذه الأشياء المهمة المريبة ...
إني أخشى عليك ... أخشى أن يصيبك من المجتمع نقد ،
وازدراء ... إنهم يتهايمسون عليك بالفعل ... وينصحون
بالابتعاد عنك ... ويقولون : إن بك خلافاً غير مفهوم ...

— وهل تباعد عني أنت أيضاً ؟ ...

— لا ... إني معك مهما يكن من أمرك ...

— أنا أيضاً لا أريد الابتعاد عنك مهما يحدث ! ... ماذا أسمى

هذا الإحساس ؟ ..

وأطرق عالم طبقات الأرض لحظة ... كأنما يبحث عن تعليل
لمشاعره الغريبة ... إن كلمة « الحب » كانت هي الأخرى قد
انقرضت منذ مئات الآلاف من الأعوام ... انقرضت بانقراض
الميل الغريزي بين الذكر والأنثى ... بعد أن تولت المعامل إفراخ

النسل ... ويزوال الحب زال الشعر والفن ... ولم يبق مكان
لعاطفة غير عاطفة الزمالة أو الصحبة بين المواطن والمواطن من
سكان الأرض ... وقلما التهت هذه العاطفة ... حتى صارت
إلى هذا اللون الغامض الذى يربط عالمَ الجيولوجيا بصديقه ! ...
لقد زال اتصال « القلوب » وحل محله اتصال « الأفكار » ...
لذلك كانت الصلة القلبية بين العالم وصديقه غريبة فى ذلك العصر
غريبة ذلك الشعور الخفى الذى يحير نفس العالم الأثرى ...
وقلق الصديق على حال صاحبه فقال له :

— لو استطعت أن توضح لى ؟! ... لأول مرة أعجز عن
قراءة فكرك ! ...

فرفع العالمُ رأسه ونظر إلى صديقه ملياً ثم قال :
— لأن فكرى مضطرب مشوش ... لا أستطيع أنا نفسى أن
أستخلص منه شيئاً واضحاً ... كل ما عندى إحساس باهت
شاحب سحيق الغور ...

— إحساس بماذا ؟ ...

— إحساس بأنه يجب أن يقع شىء بعد « وجودى » ... يجب
أن أحس لهذا الوجود « نهاية » ! ...
— نهاية ؟! ...

— ٩٣ —

وبدا الجهد المرهق على وجه الصديق ... عين ذلك الجهد
الذى كان يرهق البشر منذ مليون سنة عندما كانوا يحاولون تصور
« اللانهاية » ! ...

— نعم يا صديقى اللطيف ... هناك سر مغلق علينا ... هناك
سعادة منتظرة خلف باب موصد ... هنالك لذة غريبة وراحة
عجيبة فى حجرة ممنوعة لم تطلأها قدم ...
— ألنا أن نأمل فيها ؟ ...

— نعم ... لو استطعنا أن « لا نكون » ! ...

— لست أفهم ؟ ...

— تلك الحجرة الممنوعة علينا ... تلك الحجرة التى تجثم فيها
راحة من نوع مجهول لدينا ... أسميها أنا « الموت » ...
— الموت ؟ ...

— نعم ... الموت ...

لفظها العالم فى شبه همس كأنه يحلم ... وكأنه يستعين
بالهامه الخفى ، ويستنير بإشراقه الداخلى ليلمح على ضوءه شبح ما
يتخيل ... إنه لعسير على الخالدين أن يتخيلوا « الموت » وإن كان
الإله يعجز عن شىء ... فهنا مكان عجزه ... أن يكون فى
مقدوره أن يموت ... وإن كان قد حرم شيئاً فهذا ولا ريب موضع

حرمانه ..

— هذه الراحة ... هذه اللذة .. هذه السعادة ... هذا الذى تسميه « الموت » ... لا بد أن تصل إليه ... نصل إليه معاً ، ما دمت تؤمن به ، وأؤمن أنا بك ...

قالها الصديق اللطيف برقة ملأت نفس العالم ثقة ورجاء ... وانتهى بذلك الحديث بينهما فى تلك الجلسة ... ولم يكن بالطبع حديثاً بالمعنى المعروف قديماً ... فإن هذا الإنسان فى ذلك العصر لم يكن له فم ، ولم تكن له لغة إنما هى الأفكار تنقل من رأس إلى رأس ... وأصحابها جلوس فى صمت ...

ذاع خبر العالم الجيولوجى . وشاعت فكرته ، واستفحل أمره ، انضم إليه كثير من المتشيعين له . وأحاط به وبصديقه المتحمس رهط من المؤمنين به ... وكان هذا أول نبى ظهر منذ مئات الآلاف من الأعوام ... فإن زوال الألم والأمل لم يدع حاجة إلى رسالة أو رسل ... أما وقد ظهر الأمل من جديد فى صورة تعطش إلى راحة مجهولة ، يبشر بها ذلك الإنسان الحالم الآمل المؤمن ... فلا أيسر من أن يجد أتباعاً يدينون بما يدين ، ويسرون إلى حيث يسير ...

ولكن كانت أمامه عقبة ، هي « المعجزة » التي يطالبه بها
كفاره والجاحدون لأفكاره ... وهم ما كانوا يرضون منه بغير
معجزة واحدة : أن يميت لهم الحى ! ...

تلك كانت ساعة حرجه الكبرى ... كيف يستطيع ذلك
بمفرده ... إن علماء الكيمياء وعلم الأحياء يقفون منه موقف
الخصومة والتكذيب ...

لا بد أن تعينه قوة خفية ، إذا كان حلمه حقاً ، ووحيه صدقاً
والهامه صحيحاً ...

وهنا لأول مرة أيضاً منذ أكثر من مليون سنة ، يعود الشعور
بوجود « الله » الأكبر إلى الظهور في النفس الإنسانية من
جديد ! ...

وصاح ذلك النبي في أعماق نفسه ...
— إذا لم أكن خدعت نفسي وخدعت أتباعى ، فلا بد أن
تعيننى على « المعجزة » قوة في الكون أعظم من جميع
القوى ! ...

وتجلت هذه « القدرة » كما تجلت لبعض الأنبياء من قبل ، لأنها
أرادت أن يكون هنالك تحول في مجرى الإنسانية في ذلك
العصر ...

وإذا بنيزك ضخّم من نيازك السماء يضرب وجه الأرض
ويغور فيها فيسحق رأس إنسان فوق سطح بيته بجوف الأرض ،
عندئذ أسرع النبي وأتباعه إلى ذلك الإنسان ليرقبوا ما وقع له ،
ولكن الحكومة علمت بالأمر ، فبادرت تستخلص ذلك الإنسان
من أيدي الأتباع ، لتشرع في ترميم رأسه ... ورفض الأتباع
تسليمه ، وأصرّت الحكومة ، فوقعت الفتنة ، وحدث شغب هو
الأول منذ عشرات الآلاف من السنين وانتصرت الحكومة
آخر الأمر ، وحملت الرجل المسحوق الرأس حيث عاجلوه أو
أخفوه ... لا أحد يدرى ... أما النبي فاعتقلوه وقدموه إلى
المحاكمة فشهد عليه زملاؤه العلماء بأنه مخبول ، وأن خياله
خطير ... فحكم عليه بما يحكم على المجرمين والمفسدين ... أى
باستبدال رأسه ، وهى عقوبة تعادل إطاحة الرأس فى الأزمان
القديمة ، فقادوه إلى معمل كهربائى ... وسلطوا على خلايا
تفكيره أشعة خاصة ، فإذا هى تضعف ، فأحلوا محلها تفكيراً
آخر هادئاً دمثاً بسيطاً ... لا شخصية فيه ولا عنف ولا إرادة ...
وهكذا اختفت شخصية النبي وإن لم يختف جسمه ... ولكن
رسالته ظلت باقية ... فقد لبث صديقه وأتباعه ينشرون فكرته
خفية عن الحكومة ... مؤكدين للناس أنهم رأوا « الموت » فى

شخص ذلك الإنسان المسحوق الرأس ... ولولا أن الحكومة سارعت باختطافه لكانت « المعجزة » بادية للعيان في كل مكان ...

* * *

مضى ألف عام اشتعلت خلالها العقيدة الدينية كما تشتعل الجمرات تحت الرماد ... وآزر الحركة بعض أصحاب العقول الممتازة ، ففصلوا في مبادئ الرسالة وشرعوا ، ووضعوا فكرة « الله » الأكبر الذى فى مقدوره منح الإنسان سعادة روحية ، وراحة علوية ...

إلى أن أتى يوم أدرك فيه الأتباع أن النظام القائم وحده هو الحائل دون تحقيق ذلك الحلم الإلهى

فإن يعلم ذلك الحارس الصارم لجسم الإنسان ... الذى يحيط بقاءه بسياج من حديد ... ويعنى بخلود الجسد هذه العناية قد حجب عن الإنسانية عوالم الروح ومفاتها ...

وتمكنت هذه الفكرة من نفوس الأتباع ... فقاموا ذات يوم بثورة جارية اقتحموا فيها المعامل وحطموا الآلات ... فاضطرب النظام وسادت الفوضى ، وتعذر وصول الغازات المغذية إلى كثير من السكان ، فظهرت أعراض المرض على البعض ...

(أرنى الله)

وساءت حال البعض إلى حد الخطر ، وتوالت هجمات الأتباع ، وزاد عددهم ، واشتد ساعدهم ، حتى استطاعوا يوماً أن يتجمعوا ويعتصموا بناحية من الأرض . استقلوا بها ، أقاموا عليها صرح دينهم الجديد ، فطرحوا سلطان الإله القائم « العلم » الذى أعطاهم جبوت «العقل» وسلبهم نعمة «القلب» ولذة «الغريزة» وآمنوا بإله الكون الخالق للطبيعة.. فتركوا له وللطبيعة الأمر..

ومرت مئات الآلاف من السنين ، فظهر « الموت » ، وبظهوره ظهر « الخوف » ، ثم غريزة المحافظة على النوع ... ولما كانت معامل النسل قد دالت دولتها ... فقد بعثت الطبيعة فى الأجسام رغبة الجنس ... وعندئذ بدأ النوع يتفرع من جديد إلى ذكر وأنثى ، وظهر « الحب »

وبظهوره ظهر « الفن » و « الشعر » ... وهكذا حكمت الطبيعة بإلهها الأكبر الأرض مرة أخرى ... وعادت الأديان السماوية ... وعاد الشعراء ينشدون ويقولون : « أيها الخالق الأزلى ... لك أنت وحدك الخلود والجبروت ...

أما نحن فلا نريد أن نكون سوى بشر ...
لنا جسم مرتو ، وقلب متقد ، وعقل متعد ...

— ٩٩ —

أيتها الطبيعة الرحيمة ... لك أنت وحدك عمر الأبد ...
أما نحن فلا نريد غير عمر الندى ...
تهبط من السماء عند الفجر ...
وتصعد إلى السماء عند الضحى ...

الاختراع العجيب ! ..

اختراع عجيب ، ليس بأعجب المخترعات ، فما من شيء اليوم يثير دهشتنا أو يصدم خيالنا بعد أن عشنا العصر الذي نرى فيه ذرة لا ترى تتحطم فتخرج منها قوة تحطم مدينة عظيمة ومع ذلك فإن الاختراع الذي أتحدث عنه سوف يكون له أشد الخطر على مستقبل البشر ...

هذا الاختراع كغيره من المخترعات فكرة ليست جديدة لقد تخيلها « ويلز » في قصته « آلة الزمن » هو « جهاز » مثل جهاز الراديو يستطيع كل إنسان اقتناؤه .. له جملة مفاتيح ، إذا أدرت المفتاح الأول شاهدت في مرآة الجهاز ما يحدث لك بعد عام وإذا أدرت المفتاح الثاني أبصرت ما يقع لك بعد خمسة أعوام ، وإذا أدرت المفتاح الثالث رأيت مستقبلك بعد عشرة من الأعوام .. ولم يدخل بعد على هذا الجهاز من التحسينات ما يمكن الأفراد من رؤية مستقبلهم أبعد من هذا المدى ...

قد يسأل سائل: وأين هذا الجهاز؟.. ولماذا لم يعرض حتى

الآن فى الأسواق ؟ ...

حقيقة الأمر أن الشركة الأمريكية التى اشترت حقوق هذا الاختراع وتكفلت بصنعه وتعميمه ، قد توقفت فجأة عن المضى فى هذا المشروع ، ذلك أن المهندس الذى تولى تجربة أول جهاز تم صنعه لم يلبث أن انتحر بعد أيام ، وأراد أحد مديرى الشركة أن يجرب الجهاز مدفوعاً بحب الاستطلاع ، فلم يلبث هو الآخر أن انتحر بعد أسابيع ... وتوالى سلسلة الانتحارات فى ذلك المصنع بين العمال والمهندسين والخبراء والمديرين ، وكل من جرؤ على إدارة مفاتيح مستقبله فى ذلك الجهاز العجيب ...

قام البوليس الأمريكى عندئذ بالتحقيق فلم يظفر بجواب أو بتعليل أو بتفسير ، لأن من مات قد دفن ومعه الجواب والتعليل والتفسير ...

إلى أن كان يوم أسعف الناس مهندساً حاول الانتحار ... وأنقذوه هو وسره من الموت ، ودفعوا به إلى المحققين ، فسألوه :

— لماذا أردت الموت ؟ ...

— إننى لم أتحمل الحياة ...

— ١٠٢ —

— هل وقعت لك كوارث أثقلت كاهلك ؟ ...

— لا ... لم يقع شيء بعد ...

— إذن أنت تخشى وقوعها في يوم من الأيام ؟

— لم يحدث لى شيء في مدى عشرة أيام ...

— هل أنت واثق من ذلك ؟ ...

— لقد رأيت ذلك بعيني رأسي في مرآة الجهاز ...

— ماذا رأيت ؟ ...

— رأيت نفسي كما سأكون بعد عام ، وبعد خمسة أعوام ،

وبعد عشرة أعوام ... لم أر شيئاً جديراً بالنظر أكثر من أن كرشى

قد برزت لى وبعض التجددات في الوجه ، وبعض الشيب ،

وبعض الترهل ، وزيادة في مرتبي ، وطفلة جديدة أنجبته

امرأتى . لها عويل يصدع رأسي ... يالها من حياة مملة ! ...

أنا أسير إلى هذا الغد السخيف ! ... لطالما تخيلت المستقبل

أجمل من ذلك وجهاً ! ... فإذا هذا الوجه قد أصبح معروفا لى

بملامحه وخطوطه وقسماته وندوبه ؛ كأنه وجه زميل عادى

تافه يصاحبني في العمل ويلازمني في المسكن ... لا أسمع منه

جديداً ولا أرى فيه طريفاً ... كلا ... إن المقام مع مثله

محال ... قد يدفعني إلى التريث والاحتمال أملئ في أن يتغير في

— ١٠٣ —

الغد شيء ... ولكن إذا كنت الآن أرى الغد بعيني ... فما قيمة الغد ١٩ ... وإذا كنت أعيش فى انتظار ماتأتى به الأيام . وجاءت الأيام تلقى فى لحظة بكل ما لديها فى حجرى ، فما معنى الانتظار ١٩ ... ما فعلت بكل بساطة ... لم أجد للانتظار معنى بعد أن فقدت عنصر المفاجأة فى حياتى ! ...

فتأمل المحقق قوله مطرقاً مفكراً ... ثم قال له وهو يحك رأسه : — لا أستطيع أن أوافقك على هذا اليأس من الحياة ...

فقال المهندس الذى شرع الانتحار :

— ليس هذا يأساً من الحياة ... إنك لا تستطيع أن تفهم حقيقة إحساسى ؛ لأنك لم تَرَ ما رأيت ... إنه على كل حال ... ليس اليأس ؛ بل شعوراً آخر لا أدرى كيف أصفه لك ... انتظر ... ألم يسبق لك أن ذهبت إلى السينما فشاهدت رواية من آخرها بعد أن فاتك الشطر الأول ...

— بالطبع حدث لى ذلك ...

— ماذا كنت تفعل بعدئذ ؟ ...

— كنت أنتظر العرض الثانى لأشاهد ما فاتنى من الرواية ...

— عظيم ، وبعد أن تشاهد ما فاتك وتأتى الحوادث الأخيرة

التي تسبق لك مشاهدتها ... ماذا كنت تصنع ؟ ...

— ١٠٤ —

— كنت أنصرف طبعاً ...

— قبل الختام ؟ ...

— طبعاً ...

— ولماذا تنصرف ؟ ...

— ولماذا أنتظر وقد عرفت الرواية ؟ ...

— هذا بالضبط ما صنعتُه أنا ... بمجرد أن شاهدت

الحوادث الأخيرة من حياتي في مرآة ذلك الجهاز ، عرفت

روايتي بكل حوادثها وعقدتها ومفاجآتها فلماذا تريد مني أن

أنتظر ؟ ...

هنا فقط فهم المحققون كارثة ذلك الجهاز المخيف ... إنه

يجرد « الحياة الآدمية » من عنصر « الغيب » كما تجرد

« الرواية السينمائية » من عنصر « المفاجأة » وبهذا التجرد

تفكك عقدة الرواية ، فتصبح شيئاً لا يستطيع أحد أن يحياه ولا

أن يراه ...

الأساطير عزرائيل ! ..

الحياة أقوى من الموت ... تلك حقيقة يراها من يتأمل حوادث يوم واحد من أيامه ، إن الموت رابض لنا في كل خطوة ، ومع ذلك نتفاداه وننجو منه في أغلب الأحيان ونقفز من فوق حباله ؛ لأن يد الحياة تقودنا وتنه لنا ... الموت والحياة يلعبان منذ الأزل لعبة واحدة لا يغيرانها ... هي اللعبة التي يسميها الأطفال « استغماية » ... الحياة والموت أحدهما يختفى للآخر ويتربص به في كل مكان ، والآخر يقول له : « أراك وأعرف موضعك » ! ... أرواحنا نحن الادميين المساكين معلقة بكل شيء، وبأضال شيء... إنها معلقة بأرجل الذباب ، وإبر البعوض ... ويد سائق السيارة والقطار والطيارة ... بل إنها قد تهتز وتتأرجح بين أصابع حلاق يتناولك بالتزيين والتجميل وأنت أبعد الناس عن التفكير في شر أو خطر ...

ذهبت في أوائل الصيف أحلق ذقني عند الحلاق ، وأنا

بالحياة فرح مستبشر ... أغنى فى أعماق نفسى ، وأصغى إلى
أغاني الفلاحين وهم يقودون صفوف الإبل محملة بالبطيخ فى
أفخر شوارع القاهرة ... وغرقت فى المقعد ، وأسلمت رأسى
للحلاق وأغمضت عينى مستسلماً لأعذب الأحلام ، مستقبلاً
بوجهى النسيم الصناعى من المروحة الكهربائية ... ووضع
الحلاق على ذقتى الصابون الرطب ، فشعرت بمتعة ... وراح
يسن الموسيقى حتى لمع نصلها ، وجاء فأخذ رأسى بين يديه ، ثم
همس فى أذنى قائلاً بلهجة غريبة :

— لا مؤاخذه ! ... إنى أتوسم فيك ... فراستى لا
تخيب ... لى عندك طلب بسيط ...

ورفع الموسيقى عن صدغى منتظراً ... فبادرت أقول له :

— تفضل ! ...

فأمسك برأسى واستأنف الحلاقة وهو يقول :

— هل تعرف حضرتك أحداً فى مستشفى المجاذيب ؟ ...

فذهشت ، ولكنى قلت بهدوء :

— إذا كانت فراستك التى لا تخيب توسمت فى أى كنت نزيل

الداز فأنى أشكرك ! ...

فأسرع يقول متأسفاً :

— ١٠٧ —

— العفو ... العفو ... لم أقصد ذلك ... إنما أردت أن أقول
إني أتوسم فيك حب الخير ، وأنتك لا بد أن تكون صاحب نفوذ ،
وتعرف أحداً من أطباء المستشفى ...

— لماذا ؟ ...

— لي شقيق مجنون أريد أن أخرج به ...

— مجنون ؟ ... وهل شفى ؟ ...

— إنه لم يكن مجنوناً خطراً ؛ ولكنها دعوى باطلة من
المستشفى كما تعلم حضرتك ... إنهم دائماً يرون حبس الناس
بالظلم ... كل ما في الأمر أنه أحياناً تتراءى له خيالات ، ويتصور
تصورات لا ضرر فيها ولا غبار عليها ... فلا هو هاج ولا ماج ،
ولا صرخ ولا صخب ، ولا ضرب ولا بطش ، ولا أحدث تلك
الغوغاء والضوضاء التي يحدثها المجانين الذين يجلسون في مستشفى
المجاذيب ...

— عجباً ! ... وماذا فعل إذن حتى استحق أن يحجز ؟ ...

— لا شيء يا سيدى ... المسألة بسيطة : شقيقى هذا كان
حلاقاً مثلى ... وكان يشغل ذات صباح في أمان الله ... وكان
الوقت صيفاً ، والحر يغرى بالعطش كما لا يخفى عليك ، وكان في
يد شقيقى رأس زبون لا يتخير على حضرتك فشاءت له تخیلاته أن

— ١٠٨ —

يتصور رأس الزبون بطيخة ... وكانت في يده الموسيقى فأراد أن
يشقها بالطول ...

فارتعدت وصحت في الحال :

— يشق ماذا ؟ ...

— يشق البطيخة ... أعنى رأس الزبون ! ...

قالها الحلاق بكل هدوء ، وبنبرة طبيعية ...

فجمد الدم في عروقي ، وكان رأسي وقتئذ في يده والنصل
الحاد البراق يمر عند الحلق ... فأمسكت أنفاسي خوفاً
وجزعاً ... ولكني لم ألبث أن تجلدت وقلت له بوداعة ورفق
لأدخل عليه الرضا وعلى نفسي الاطمئنان :

— طبعاً شقيقك هذا شاذ في العائلة ...

فقال بهدوئه المعتاد ونصله فوق حلقي :

— الحقيقة أن هذا شيء في العائلة كلها ... أنا نفسي أحياناً

تخطر لي تصورات عجيبة ... خصوصاً في موسم البطيخ ...

كلام في شرك شقيقي معذور ! ...

ولمعت عين الحلاق ببريق عجيب يضاهي بريق النصل الذي

فوق حلقي فأيقنت بقرب الساعة . وتشهدت على نفسي

وترحمت ...

— ١٠٩ —

وأغمضت عيني مستسلماً لا للذيذ الأحلام هذه المرة ؛ بل
لجىء الموت وخروج الروح ... ولم أفتحهما إلا على صوت
رشاشة الكلونيا وهي تمطر وجهي ... وعلى صوت الحلاق وهو
يقول لى : نعيما ...

فانتفضت ونهضت كمن ولد من جديد ، ودفعت حسابى
والحلاق فى أثرى يوصينى بشقيقه والتوسط فى إخراجه وأنا لا
أسمع منه ولا أعى ... وما إن وضعت قدمى فى الطريق حتى
تنفست الصعداء ، وأقسمت أن أحلق ييدى أو على الأقل لا أدخل
عند هذا الحلاق فى موسم البطيخ ...

مہجزات و کرامات ! ..

استيقظ الراهب مبكراً كعادته ... لم تسبقه غير العصفير
الناهضة من أعشاشها ... وقام إلى صلاته وعبادته وعمله في
تلك البيعة من إقليم الشرق ... فقد كان ذلك القسيس روحها
ونورها ... له عند رجال الدين منزلة ... وله عند الناس
احترام ... وكان أمام الباب نخلة صغيرة ، غرسها بيده واعتاد
أن يسقيها قبيل الشروق ... وأن يتأمل الشمس ييزغ طرفها من
الأفق أحمر كالبلحة ، ثم ترسل أشعتها إلى السعف المندى ،
فتسقط عنه قطرات الفضة ... لتلفه في خيوط كالذهب ...

فرغ القسيس في ذلك الصباح من سقى النخلة ... وهم
بالدخول ، وإذا أمامه جماعة يبدو عليهم الغم والحزن ... تجرأ
واحد منهم وقال بنبرة الضراعة :

— أبونا ! ... أنجدنا ! ... وليس من ينجدنا غيرك ! ...

امرأتى على فراش الموت ... وهى تلتمس منك أن
تباركها ... قبل أن تلفظ النفس الأخير ...

— ١١١ —

— أين هي ؟ ...

— فى قرية مجاورة ، والمطايا حاضرة !
وأشار الرجل إلى حمارين مسرجين فى الانتظار ... فقال
الراهب :

— إننى لست على استعداد يا أبنائى ! ... تمهلوا حتى أرتب
شؤونى وأخبر إخوانى ، وأعود إليكم لتمضوا بى
فقال الجماعة فى صوت واحد :

— لا نملك دقيقة ! ... المرأة تحتضر ... وربما وصلنا
إليها بعد فوات الأوان ... امض معنا الآن من فورك إذا أردت أن
تكون بنا بارا كريماً ، وللمرأة التى تموت منقذاً رحيماً ...
والمكان قريب ... وستذهب وتعود قبل أن تستقر الشمس فى
الضحى ! ...

— هلموا بنا ! ...

قالها القسيس بصوت فيه حماسة الشهامة وحرارة
المروءة ... وتقدم والجماعة خلفه حتى اقتربوا من
الحمارين ... فركبوا أحدهما ... وركب زوج المجتصرة
الآخر ... وانطلقوا خارج البلد ...
وجعلوا يضربون الأرض ساعات ... والقس يسأل عن

الموضع ، وهم يحثون الحمار بالنخس قائلين : « وصلنا » ...
 فما لاحت لهم القرية إلا وقد انتصف النهار ، ودخلوها
 فاستقبلتهم كلابها بالنباح ، وأهلها بالترحيب ... وتوجه
 الجميع إلى الدار بالقرب من « داير الناحية » ... وقادوا
 القسيس إلى قاعة وجد فيها المرأة طريحة على فراش ... وقد
 شخضت ببصرها إلى السماء ... ناداها فلم تجب ... فهي من
 المنية قاب قوسين ! ... فشرع يستنزل عليها البركة ... ولم
 يكد يفرغ من ذلك حتى لفظت آهة طويلة شفعتها بشهيق عميق
 ظن معه القسيس أن روح المرأة تفيض ... ولكن أهدأها
 ارتعشت ، ونظرتها لانت ، وتلفتت تهمس :

— أين أنا ؟ ...

فقال القسيس دهشاً :

— أنت في دارك ! ...

— على بشرية ماء ! ...

فصاح أهلها من حولها :

— هاتوا القلة ! ... هاتوا الجرة ! ...

وتسابق القوم إلى الإناء فأحضروه ... وشربت المرأة طويلاً
 وتعجشأت ... ثم قالت :

— ١١٣ —

— أما من طعام ؟ ... إلى جوعى ! ...

فبادر كل من فى الدار يأتى إليها بطعام ... وطفقت المرأة
تلتهم الأكل ... والعيون من حولها تلتهمها دهشة وعجباً ، ثم
تركت فراشها ونهضت تمشى فى الدار كاملة الصحة موفورة
العافية ! ...

وعندئذ خر القوم على يدى القس ورجليه ، يشبعونها لثماً
وتقبيلًا ... ويصيحون :

— أيها الرجل المبارك ! ... لقد حلت بركتك فى الدار ،
وأحييت بركتك الميتة ! ... ماذا فى قدرتنا أن نعطيك ؟ ...
وفاء منا بواجب الشكر ... واعترافاً منا بالجميل ! ...
فقال القسيس الذى أذهله الحادث :

— إلى ما صنعت شيئاً أستحق عليه أجراً أو شكراً ... ولكنها
قدرة الله ...

فقال صاحب الدار :

— سمها ما شئت ! ... إنها على كل حال معجزة أراد الله أن
تتم على يديك أنت أيها الرجل المبارك ! ... ولقد حللت فى
دارنا المتواضعة ، وإنه لشرف وحظ ونعمة ... ولا بد أن نقوم
بحق الضيافة على قدر ما تسمح به حالنا ! ...
(أرى الله)

وأمر بحجرة منعزلة فأعدت للضيف وكلما استأذن القسيس فى الانصراف ، حلف صاحب الدار بكل محرج من الأقسام ألا يدع ضيفه المبارك يذهب قبل ثلاثة أيام ... أقل ما يجب نحو من أنقذ حياة امرأته ... وجعل يحفه بالعناية ويغمره بالتكريم ... حتى انقضت مدة الضيافة ... فأسرج المطية ... وحملها بالهدايا ... من فطير وعدس ودجاج ، ووضع فى يد القسيس خمسة جنيهاً لصندوق الكنيسة ... ولم يكذب شيعه إلى الباب ويقيمه على الحمار حتى أقبل رجل يلهث وارتمى على قدم القسيس ... يتوسل ويقول :

— أبونا ! ... حديث معجزتك بلغ القرى المجاورة ... لى عم فى مقام أبى ، على فراش الموت ... وهو يأمل فى بركتك ... فلا تترك روحه تصعد قبل أن تحقق أمله ! ... فقال القسيس متردداً :

— ولكنى يا بنى قد تهيأت للعودة ! ... — هذا أمر لم يستغرق منك وقتاً .. ولن أدعك حتى تذهب معى إلى عمى ...

وأمسك بزمام الحمار وسار به ... فقال القس : — وأين عمك هذا ؟ ...

— هاهنا ... على مسيرة دقائق ...

فلم ير القسيس بدأ من الإذعان ... وسار مع الرجل ساعة إلى أن دخل القرية الثانية ... ورأى فيها داراً كالدار الأولى ... ومريضاً على فراش ... قد أوشك على الموت ... وحوله أهله يتقلبون بين اليأس والرجاء ... فما أن دنا القس من المريض واستنزل عليه البركة حتى حدثت المعجزة ... فإذا المحتضر يهب قائماً يطلب الطعام والشراب ... والقوم من الأمر فى دهشة ، ويحلفون بالأيمان المغلظة أن يؤدوا نحو الرجل المبارك واجب الضيافة ثلاثة أيام بالتمام ...

وانقضت مدة الضيافة بين تكريم ورعاية وحفاوة وعناية ... وشيعوا الضيف إلى أبواب القرية مثقلاً بالهدايا ... وإذا رجل من قرية ثالثة يفد عليه ، ويدعوه إلى زيارة قريتهم لتحل البركة ... ولو لمقدار ساعة ... فإن شهرة القسيس المبارك قد طبقت جميع القرى ... وما استطاع القس من الرجل خلاصاً ولا فكاً ... فقد قاد ذلك الرجل لجام الحمار ... وذهب به إلى دار فى قريته ... وجد فيها غلاماً كسيحاً ؛ ما أن لمسه القس حتى نهض يركض على قدميه ويجرى بين تهليل أهل الدار وهتاف الصغار والكبار ... وأقسم الجميع على واجب الضيافة نحو

— ١١٦ —

صاحب المعجزات ... فأدوها على أحسن وجه ... ثلاث ليال ،
لا تنقص ليلة ، أسوة بغيرهم ... حتى إذا انتهت المدة قاموا إلى
الضيف فأضافوا هدايا جديدة إلى ما معه من هدايا ... حتى كاد
ينوء بها حماره ... ونفحوه من المال فوق ما منح في القريتين
السابقتين من مال ... حتى اجتمع له ما يربو على عشرين جنيهاً ،
وضعها في كيس أخفاه في صدره ... وامتطى الحمار ... وطلب
من أهل الدار أن يجرسوه حتى بلده ... فهبوا كلهم إليه ...
وساروا خلف مطيته وهم يقولون :

— نحرسك بقلوبنا ... ونفديك بأرواحنا ! ... ولن
نسلمك إلا إلى ذويك ... فأنت عندنا تساوى ثقلك ذهباً ! ...
فقال القس ولم يفطن إلى عبارتهم :

— سأحملكم بعض المشقة ... ولكن الطريق غير مطمونة ...
والعصابات اليوم منتشرة في الأقاليم كما تعلمون ! ...
فقالوا :

— حقاً ... إنهم ها هنا يخطفون الآن الرجال في راحة
النهار ! ...

فقال القس :

— حتى السلطة عاجزة عن دفع هذا الشر المستطير ... لقد قيل لى : إن عصابات الخطف تستوقف اليوم السيارات العامة فى الطرق الزراعية ، وتصعد تحيل الأنظار فى الركاب ؛ فمن وجدته على شىء من الوجاهة والثراء أنزلته وجرتة معها ؛ لتطالب أهله بعدئذ بدية كبيرة ... وقد كان ذلك يحدث أحيانا وبعض رجال الأمن فى السيارات ... علمت أن اثنين من رجال الحفظ كانا ذات مرة بين ركاب سيارة من تلك السيارات ... فلما اعترضتها العصابة ، واختارت من الركب من اختارت ، استغاث برجلي الحفظ الحاضرين .. فما كان منهما — لخوفهما من بأس اللصوص — إلا أن قالوا للمخطوف : انزل معهم وخلصنا ! ... فضحك القوم ، وقالوا للقس :

— اطمئن ! ... ما دمت معنا فلن تنزل من فوق حمارك إلا فى بلدك ! ...

— إني أعرف شهامتكم ! ... لقد غمرتموني بكرمكم وتقديركم وسخائكم ! ...

— لا تقل ذلك ... أنت كنزنا ...

وساروا خلف القس يتحدثون بمناقبه ، وبفيضون بذكر

— ١١٨ —

معجزاته ، وهو يصغى إلى حديثهم ويتأمل ما وقع ، وأخيراً
صاح :

— حقاً هذا ... شيء عجيب ما حدث لى هذه الأيام ! ...
أترى إلى بركتى وحدها يعود الفضل كله فى هذه
المعجزات ؟ ...
فقالوا له ؟ ...

— وهل تشك فى ذلك ؟ ...

— إنى لست نبيا حتى أقوم بذلك كله فى سبعة أيام ، ولكنكم
أنتم الذين جعلتمونى أصنع هذه المعجزات ! ...

فقالوا جميعاً فى صوت واحد :

— نحن !؟ ... ماذا تعنى ؟ ...

— نعم ... أنتم المصدر الأول ! ...

فتبادلوا النظرات ، وهمسوا :

— من قال لك هذا !؟ ...

فمضى القس يقول باقتناع :

— إيمانكم ... إنه الإيمان جعلكم تحققون كل ذلك ... إنكم

لا تعرفون ما فى نفس المؤمن من قوة ... الإيمان قوة يا أبنائى ...

الإيمان قوة ! ... المعجزة ثاوية في قلوبكم ... كالماء في الحجر ... لا يفجرها غير الإيمان ! ...

وظل بمثل هذا الكلام يتحدث ... والقوم خلفه يهزون رؤوسهم ... وأمعن في حماسة القول وحرارة الوعظ ... فلم يفتن إلى القوم خلفه وهم يتسللون ، الواحد بعد الآخر ... فما بلغ حدود بلده وثاب إلى نفسه ، والتفت خلفه يشكر مشيعيه وحارسيه حتى عقد لسانه العجب ... لم يجد خلفه أحداً إلا الحمار الذى يحمل أشياءه ! ...

ولم تطل دهشته ... فقد وجد ذويه وإخوانه ومرعوسيه من رجال الكنيسة ... يندفعون نحوه ... يضمونه ويلثمون يده ، وعبرات الفرح والتأثير تسيل على خدودهم ... وتماسك واحد منهم وقال :

— عدت إلينا سالماً ... أخيراً ! ... لقد وفوا بوعدهم فليأخذوا الأموال ، وليعطونا « أبونا » ! ... كل مال فداك يا « أبونا » ! ...

وفطن القس إلى كلمة المال ، فصاح :
— أى مال ؟ ...

— ١٢٠ —

— المال الذى دفعناه للعصابة ! ...

— أى عصابة ؟ ...

— التى خطفتك ! ... لم ترض بأقل من ألف جنيه أول الأمر ... قائلين : إن ثقلك يساوى ذهباً ! ... ولكننا توسلنا إليهم أن يقبلوا النصف ؛ فرضوا أخيراً ... ودفعنا لهم دية إرجاعك من صندوق الكنيسة خمسمائة جنيه ! ...

فصاح القس :

— خمسمائة جنيه دفعتموها من أجلى ؟ ! ... قالوا لكم إلى كنت خطوفاً ؟ ...

— نعم ... بعد اختفائك بثلاثة أيام جاءتنا جماعة ، وقالوا إن عصابة خطفتك فى الصباح وأنت أمام الباب تسقى نخلتك ! ... وأقسموا لنا أنك هالك إن لم ندفع لهم ديتك ... أما إذا دفعنا فإنك تحضر لنا سالماً بعد ثلاثة أيام من الدفع ! ...

فتأمل القس هذا القول ، وكر بذاكرته إلى ما وقع ، وقال كالخاطب نفسه :

— حقاً ... هذا معقول ... هؤلاء الموتى والمرضى والعجزة الذين هبوا ناهضين من بركتى ! ... يالها من براعة ! ... وأقبل ذووه من جديد يفحصون جسمه وثيابه قائلين

— ١٢١ —

فرحين :

— كل شيء يهون إلا سلامتك يا « أبونا » ! ... لعلهم لم
يسيئوا إليك في أيام خطفك ! ... ماذا صنعوا لك ؟! ...
فقال وهو ذاهل :
— جعلوني أصنع معجزات ... ولكنها معجزات قد كلفت
الكنيسة ثمناً باهظاً ! ...

مؤتمر الحب ! ..

كانوا أربعة حول مائدة « قهوة » على شاطئ النيل ...
ينظرون إلى غروب الشمس صامتين ... ويتأملون كالحالمين
أشعتها الشاحبة تلون بحمرة خفيفة قلاع المراكب البيضاء ،
كما كان الحياء — فيما مضى — يلون وجه العذراء ...
هؤلاء الأربعة هم : صحفي وشاعر وموسيقي وامرأة ، كل
شيء فيهم كان ينم على أن المرأة معبودتهم ، ولكنهم
يكتُمون ... أما هي فلم تظهر بعد إلى أيهم مالت ؟ ... ولا أيهم
اختارت ؟ ...

طال صمتهم حتى ضجر أحدهم ، فصفق بيديه وصاح :
— أفيقوا ... وافتحوا لنا ...
— زجاجة « شمبانيا » ! ...
قالها الموسيقي على عجل ... فقاطعه الشاعر :
— بل موضوعا نتحدث فيه ...
فقال الصحفي :

— ١٢٣ —

— فى السياسة بالطبع ...
— أعوذ بالله ! ... إني أقابل هذا الاقتراح بالرفض ...
— أتريد أن يكون لك أنت أيضاً فى مجلسنا هذا حق
« الفيتو » أو الاعتراض والنقض ؟! ...
فتدخل الشاعر حسماً للنزاع :
— إذا أردتم الإنصاف فإنى أقترح أن يكون الموضوع مما
يهمنا جميعاً ... ابحثوا عن موضوع يهم الجميع ! ...
— الحب ...
أطلقتها المرأة كما تطلق قنبلة صاروخية ... بسرعة وبغير
تردد ، ونبرة الواثق المطمئن ...
— الحب ؟! ...
خرج اللفظ من أفواه الرجال ، كما تخرج كلمة « آمين »
من أفواه المصلين ...
ومضت المرأة تقول :
— إنه بالتأكيد يهمكم أجمعين ... إنه يهم الصحفى ... وهل
تستطيع أيها الصحفى أن تنكر أن أعجب خبر نشر فى القرن
العشرين هو حب ملك الإنجليز لـ « ليدى سمبسون » ، ونزوله عن
العرش الضخم من أجل هذا الحب ؟! ... وأنت أيها الشاعر هل تجحد

أن الحب هو الذى أثار حرب « طروادة » وألهم « هوميروس »
الإلياذة ... أخلد شعر على الدهر ؟ ... وأنت أيها الموسيقى
هل تنفى أن المزمارة منذ وجد ، والقيثارة منذ صنعت لهما هدف
غير التعبير عن الحب ؟ ! ...

فقال الجميع بصوت واحد :

— صحيح ...

وسكتت المرأة سكوت المنتصر الذى اعتاد الظفر ...
ولكن الرجال الثلاثة مالبثوا أن التفتوا إليها وسألوها بلسان
واحد :

— وأنت ؟ ...

— أنا !! ...

وبدت الحيرة فى وجهها قليلا ... أمجانين هم ؟ ... أتسأل
امرأة عن أمر هو بالنسبة إليها البداة عينها ... ولكنها تماسكت
وتصنعت ومثلت ، وهى بالسليقة خير ممثلة ... وقالت :

— الحب ؟ ! ... لست أدرى ما هو أيها الصحفى ... وأنت
أيها الموسيقى ؛ ثم أنت أيها الشاعر ، أخبرونى : ما هو
الحب ؟ ... ومن استطاع منكم إقناعى فاز بقلبى ! ...
وغرقت فى مقعدها ... وأسندت رأسها إلى كتفها ...

— ١٢٥ —

وتأهبت للاستماع إلى الرجال الثلاثة وهم يتبارون أمامها لنيل
الجائزة الكبرى ! ...

تنحنح الصحفي ... وهرش رأسه ثم قال :

— اللهم اجعل قلبها من نصيبي ! ... تريد أن تعرفي ما هو
الحب ؟ ... الحب هو « خبر » يستقى من القلب ... ويسأل
فيه العقل فيكذبه ... ولكن القلب يؤمن به ويجازف بإعلانه ،
متحملاً وحده مسؤولية النشر ! ...

فقال الموسيقى :

— بل الحب « لحن » يعزف على أوتار القلب ... وكلما
قطع العقل منه وترأ ، زاد اللحن طرباً ! ...
وقال الشاعر :

— إنما الحب « قصيدة » تنفجر من القلب معانيها ، وتخبو
روعتها إذا وضع العقل أوزانها ! ...
فقالت المرأة :

— إنني لم أسألكم تعاريف ... إنما أريد منكم تجاريب ...
قولوا لي ماذا يحس كل منكم إذا اخترته حبيباً لقلبي ؟ ... أنت
أيها الصحفي ... بماذا تشعر ؟ ...
فقال الصحفي :

— ١٢٦ —

— أشعر أنى أغار عليك من هذه الشمس الغاربة ... لو
لمست أشعتها خديك ... خشية أن تخطف وهى ذاهبة شيئاً
منك ، ولن أسمح بابتسامة منك تلقى إلى هذين الصديقين ؛ بل
اللصين ... إنهما سينقلبان فى نظرى نشالين يتربصان بلؤلؤة من
لآلئ بسماتك وكلماتك ونظراتك ... لن أدع مخلوقاً يأمل
فى ذرة من فتات مائدتك الحافلة بالسكر والفتنة ... كل
الرجال يصبحون فى عيني قطاع طرق إذا اقتربوا من كنوزك ...
قالت المرأة باسمه :

— وما بالك الآن هادئاً ، لا تحرص لا تغار ؟ ...
— أحرص وأغار الآن على ماذا ؟ ... إن عطفك علينا
الساعة نحن الثلاثة لطيف ، ولكنه يدفعنى إلى شيء ... وأين هو
ذلك الذى يحرص دون الباقيين على أن يسور قطعة أرض يملكها
بالمشاع مع آخرين ؟ ... إذا ملكت أنا وحدى حرصت وغرت
وسورت ...

— الملكية إذن هى أساس الحب عندك ...
قالتها والتفتت إلى الشاعر :
— وأنت ... ما شعورك لو آثرتك بحبى ؟ ...
فقال الشاعر :

— أحس أنك قد طلعت من مشرق « قلبي » لتحلى فى الدنيا
 محل تلك الشمس الغاربة ... أحس أنك ضياء حياتى ، وضياء
 كل الكائنات ... أشعة عينيك دفء لى ولكل المخلوقات ...
 سأدرك أن جمالك لم يخلق لسعادتى وحدى ... وأنك كهذه
 الشمس أكبر من أن تملكها يداى بمفردى ... وإنما أنت نعمة
 للناس ، لن أغار إذا أرسلت نسماتك كالأشعة تملأ قلوب العباد
 نوراً ورحمة وسلاماً ... سأسير إلى جانبك مزهواً فخوراً كلما
 رمتك العيون ... لأنى سأعرف أن الجماهير قد رأت فيك ما
 أرى ، وأعجبت بما أعجب ، وآمنت بما أو من ... إن آية الله فى
 حسنك يجب أن تبلغ للناس كافة ... ما أنت إلا كتاب مقدس
 لم ينزل لأتلوه وحدى دون البشر ! ...

— الشيوعية إذن هى أساس الحب عندك ! ...

ونظرت إلى الموسيقى :

— وإذا فضلتك أنت ؟ ... فماذا تشعر ؟ ...

فقال الموسيقى :

— أشعر أن شمس الفن قد أشرق فى قلبى ... ولن يكون
 لها بعد اليوم غروب ... فإن الألحان التى ستخرج من وحيك لن
 يسمع مثلها بشر ... إن قيثارة « أورفيوس » التى قاد بها

— ١٢٨ —

الضواري والأنعام ؛ لن تلحق بقيثارتى التى سأخلب بها العقول
وأستلب الأفهام ... لن تعرفى موتاً أبداً أيتها المرأة ؛ لأن الخلود هو
هديتى إليك ... أنغامى تهبط من إلهامك كما يهبط الندى من صميم
الفجر : ستبقى على الدهر ترددها الأفواه بعد الأفواه ...

— الفن إذن هو أساس الحب عندك ؟ ...
وأطرقت فى شبه يأس .. وطال إطرأها ...
فاستعجلها الجميع فى صبر نافذ :
— تكلمى واحكمى وانتخبى من بيننا ...

فقلت :

— لا أريد رجلاً يحب الامتلاك أكثر منى ، ولا أحب رجلاً
يعبد ذاتى أكثر من ذاته ... ولا أبغى رجلاً يهيم بفنه أكثر من
شخصى ...

وأشاحت بوجهها عن الثلاثة ، وطفقت ترسل بصرها إلى
الشفق الأحمر المراق على مصرع الشمس عند الأفق ...
ونخيم صمت قطعه الصحفي قائلاً :

— أرايتم ؟ ... أما كان خيراً لنا أن نتحدث فى السياسة ؟ ...
فوافق الموسيقى بهزه رأسه ... ولكن الشاعر قال :
— وهل تحسبوننا خرجنا عن السياسة ؟ ... يا للمرأة ! ...

— ١٢٩ —

إنها مثل الدنيا ... لا يذرى الإنسان كيف تفهم ، ولا كيف
تحكم ؟ ... تضاربت فيها المذاهب ، وتناقضت النظريات ...
من رأسمالية ... إلى شيوعية ... إلى فنية إنح ... فما اهتدى أحد
إلى مفتاحها ... ولا وفق إلى فك عقدها ومعضلاتها ... ولا إلى
فتح مغاليقها ، ولا إلى حل رموزها وأسرارها ...
فعادت إليهم المرأة بوجهها قائلة :
— لأنها أبسط من ذلك كله لو تعلمون ! ...

(أرى الله)

امراة غلبت الشيطان ! .

كانت دميمة هذه المرأة ! ... لم تعرف ربيع العمر ... ولكنها
عرفت خريفه وشتاءه ... لم يورق لها أمل ، ولكن دموعها
هطلت كالمطر ، والفرح تساقط في قلبها كأوراق الشجر ...
وبرد الحرمان من متع الجسد قد ضرب من حولها نطاقاً ، إنها
جزيرة الكآبة في محيط الكون ، هكذا تعيش ، وهكذا
ستموت ... لن يضم خصرها رجل ... ولم تعرف شفتها غير
الصلوات لسما لا تسمع واللعنات على قدر لا يرحم ...
وفي ذات ليلة عصفت فيها الرياح الهوج ، وزمجرت الزوابع
الثائرة ، لا خارج حجرتها ؛ بل داخل نفسها ... صاحت
صيحة اهتزت لها أركان كيائها القبيح :
— أيها الشيطان ... لم يبق إلا أنت ! ..

وأطرقت في شبه غيبوبة ! ... وإذا الجدران تنشق ويظهر لها
الشيطان كما ظهر من قبل للعلامة « فوست » والشيطان لا يصم
أذنيه عن الدعاء ... إنه مرهف السمع ، سريع في تلييته

— ١٣١ —

النداء ... قال لها :

— ماذا تريد أن أيتها المرأة ؟ ...

— الجمال ... الحياة ... المتعة ...

لفظتها كما يلفظ الظمآن كلمة « الماء » في تيه الصحراء ،

فقال لها الشيطان :

— أتعرفين الثمن ؟ ...

— خذ الثمن الذي تريد ! ...

— روحك أذهب بها إلى الجحيم ! ... ذلك عملي في

الأرض ... أسعى لجمع الأرواح أعمرها مملكتي « جهنم »

لنرى آخر الأمر أيهما الظافر بأكبر تعداد : أنا الجالس على عرش

النار ، أم ذلك على عرش الفردوس ؟ ...

— أعطني المتعة في الأرض عشر سنين ، ثم اذهب بي بعد

ذلك إلى حيث شئت ... إن الجحيم لا تخيفني ، فأنا الآن في

جحيم ! ...

— اتفقنا ... لك المتعة عشر سنين ... وأنت لي بعد

ذلك ...

— وحررا بدم المرأة الصك المعهود ... ووقعت عليه

بإمضاءها ... ومس الشيطان بيده جسد المرأة فانتفضت ...

— ١٣٢ —

وأشار لها بأصبعه إلى مرآة الخزانة ... فنظرت فإذا جمال يضيء
منها كأنه شهاب ... إنه جمالها ... أهى صاحبة هذا
الجسم ؟ ... ألهما هي هذه الروعة والفتنة والسحر ؟ ...
وألقت المرأة نفسها فى نبع الحياة تعب ... وغمرت
جسدها فى بحر الملذات يغوص ... وجرفها تيار الأيام إلى
السنة العاشرة ، فطفت على السطح كالقربة ، ارتوت وامتلات
بماء المتع وانتفخت ...
وجاءها الشيطان وفى يده الصك يذكرها بقرب الموعد
فقالت له :

— نعم ... أذكر ولم أنس ... ولكن ...

— ولكن ماذا ؟ ...

— هنالك متعة أشعر لها بظماً ...

— أهنا لك من المتع ما لم تذوقيه بعد ؟ ...

— متعة الروح ! ... تلك متعة لا بد أن تأذن لى بها ... طبقاً

للصك ... ألم تتعهد لى بأن تنيلنى كل المتع فى عشر سنين ...
أمامى شهران حتى أتم المدة ... لقد سئمت المتع الجسدية ... لى
عطش شديد للمتعة الروحية ... أنلنى متعة الروح أيضاً فى هذين
الشهرين ، وخذ روحى إلى الجحيم ...

— لك ما أردت ... إني كما ترين ، أمين في تنفيذ
الشروط ...

واختفى وترك المرأة ... فقامت لساعتها وخلعت دماجلها
ونبذت بهارجها ... وارتدت الحشن من ثياب النسك وذهبت
وأدت فرائض الحج ... وغرقت في التأملات
السامية ... وانقطعت للأعمال الصالحة ، وأوغلّت في الحياة
العليا الطاهرة ، حتى انصرم الشهران ، وجاء الشيطان يطالب
بوفاء العهد ... فإذا هو يرتعد لمرأى المرأة ... ياله من جمال
يدثر كيائها ؛ ليس هو الجمال المضيء كالشهاب المحرق ...
ولكنه نور عميق لطيف يعرف مصدره العلوى ... فارتاع
منه ... لكنه تجلد وتقدم نحو المرأة قائلا :

— حانت الساعة ... هيا معى إلى الجحيم ! ...

— هلم بنا ...

قالت المرأة طيبة مدعنة ... لا مطل فى لهجتها ولا فى
نيتها ، وسار الشيطان ، وسارت هى خلفه حتى بلغا باب
جهنم ... فلما أحس الزبانية بقدوم ملكهم ، فتحوا الأبواب على
مصاريعها فدخل ملك النار ، وأرادت المرأة أن تدخل خلفه ..
فما أن وضعت قدميها على العتبة ، حتى هبت فى الجحيم ريح

— ١٣٤ —

تراجعت لها ألسنة اللهب، فذب الذعر في قلوب الزبانية ، ودهش
الشیطان وفرع وصاح وقد ردد صيحته أهل النار :
— ما هذا ؟ ... ما هذا ؟ ...

وهنا امتدت أيدي الملائكة حراس الجنة ، فاختطفت المرأة
وهي تصيح قائلة للشیطان :
— هذه المرأة لنا ...

فصاح الشیطان :
— بل هي لي ... روحها لي بمقتضى الصك ...
انظروا !! ...

— نحن لا ننظر في صكوك ... بل ننظر في أرواح ... هذا
روح من أرواح الجنة ...
— بل من أرواح النار ... لقد دمع بطابع النار منذ عشر
سنين ...

ولكن نسيم الجنة دخل فيه منذ شهرين ، هذا النسيم الذي
ترونه. كريح صرصر لا تطيقها نيرانكم ، ولا يقف في وجهها
لهبكم ...

— لقد خدعتني إذن هذه المرأة ! ...

وعندئذ صاحت المرأة وهي في أيدي الملائكة :

— ١٣٥ —

— لم أخدعك ... إني وفية بعهدى ... خذنى إلى الجحيم ...
دعونى أيها الملائكة أذهب إلى الجحيم ... هكذا وعدت ... ومن
الفضيلة أن أبر بوعدى ولا أنكث عهدى ولو مع الشيطان ! ...
فقال الشيطان :

— أسمعتم ؟ ... إنها لى ... دعوها تلحق بى ! ...
فجذبها الملائكة إلى الجنة وهم يقولون :

— لو تنكرت لك الساعة وتنصلت لدفعنا بها إليك ...
— ياله من منطق ... إنها تصيح بكم معترفة أنها لى فيكون هذا
حجة علىّ ودليلا ضدى !؟ ... لقد أقرت بالصك ... أقرت
بأن روحها لى ...

— نعم روحها الأول ... ولكن أين الآن روحها
الأول ؟ ... لقد أعطتك روحها الأول فابحث عنه ... أما روحها
هذا فهو لنا ... هلمى بنا أيتها المرأة الطاهرة ...
فتوسلت المرأة قائلة :

— إنها جريمة أن أنكص عن الوفاء ... دعونى بربكم أذهب
إليه وأكفّر عن ذنوبى الأولى ...
فقال الملائكة :

— ليس لك ذنوب أولى ... لقد ذابت فى نور طهرتك

الأخير ...

— إذن لا تعرضونى لذنوب جديد : هذا المطل لصك واجب

الوفاء ...

— لا شأن لك بهذا الأمر ! ... هلمى بنا ... هلمى بنا ...

فصاح الشيطان :

— يا للعجب ! ... امرأة فاضلة تريد الحرص على شرف

كلمتها ، فتأبون أنتم إلا تخريضها على سفالة الخلق ! ...

فقال الملائكة :

— أتعترف بأنها امرأة فاضلة ! ... إذن أين تذهب الفاضلات

من النساء ؟ ... إلى النار أو إلى الجنة ؟ ...

وهنا ضاق الشيطان بالجميع ذرعا ، فقال :

— تباً لكم ... تباً لكم ... خذوها وخلصونى ... أليست

روح امرأة ! ... إنها ليست أكثر من امرأة ... فلتذهب إلى ...

إلى الجحيم ... أقصد إلى الجنة ... ولكنى لن أنسى أنها

خدعتنى ... خدعتنى يوم سميت « الفضيلة » متعة ! ...

الحبيب المجهول ! ..

من هو ؟ ... لم أكن أدري أين هو ؟ ... وهل كنت أدري ؟ ... مصيبتى هى جهلى به ... ولو أنى كشفت عن حقيقته فى الوقت المناسب لما كان قد حدث لى الذى حدث ! ...

القصة بسيطة ، تقع لكل إنسان فى كل حين : سيارة يقودها صديق ، يمر بك فى الطريق ، فيقف ويدعوك متفضلاً إلى الركوب ، ليوصلك إلى حيث تريد ، ماذا فى هذا من غريب أو مريب ؟ ... لا شىء بالتأكيد ، وهذا ما وقع لى بالضبط :

كنت أسير ذات عصر فى طريقى إلى منزل ، أمشى الهويناً بمفردى ، أتأمل الأشياء حولى فى رضا ، فالسير على الأقدام متعة وفائدة... وإذا سيارة فخمة تقف على مقربة منى، ويطل منها صديق يشير إلّى ويدعونى أن أركب ، فأردت الاعتذار إيثاراً لرياضة المشى ، فألح وأصر ، وفتح باب السيارة ونزل ليأخذ بيدى ويجلسنى فى مقعده ... فلما دنوت ونظرت ، بهت ،

ذلك أن السائق كان عادة لم تقع عيني على أجمل منها ... وكان المقعد الذى دعيت إلى الجلوس فيه إلى جوارها ، فلم أر من سلامة الذوق أن أتراجع ؛ بل إنى لم أفطن إلى نفسى إلا وأنا راكب ، والسيارة تنهب بنا الأرض ، والصديق فى المقعد الخلفى يسألنى عن وجهتى ، وأنا لا أدرى بماذا أجيب ... هنالك نوع من الجمال يعمى البصيرة ، كما يعمى مصباح السيارة البصر ، فلا بد من وقت تفرك فيه عينيك لترى ، ولا بد من فترة تسترجع فيها فطنتك لتدرك ، وعندما مرت الفترة ذهبت السكره ... كان منزلى قد اختفى شبحه وراءنا ، وزال أثره ، فأقفت صائحاً فيها :

— بيتى ... بيتى ! ...

فأوقفت السائقة الجميلة السيارة فى الحال ، وأرادت أن تدور بها لتعود بنا أدراجها ... وإذا سيارة أخرى كانت آتية من خلف قد اعترضتنا ، ووقفت ، ونزل منها رجل يتفجر غضباً ، وأقبل نحونا مسرعاً ، ورأيته قد دنا منى ، وأمسك بمقبض الباب ليفتحه عنوة ، وخيل إلى — من شرر عينيه — أنه يريد بى شراً ، وهنا سمعت صديقى الجالس خلفى يلفظ صيحة :

— ضبطك ! ... انطلقى بالسيارة إلى آخر سرعة ! ...

— ١٣٩ —

وإذا بالغادة ، وقد لمحت وجهها قد امتقع ، وأمسى —
حتى فى شحوبه جميلا كالوردة البيضاء المشربة بالصفرة — قد
اندفعت بالسيارة ، فإذا هى تسابق الريح ، تاركة الرجل وقد
تنحى عن طريقها خشية أن يصدم أو يداس ...
مرقت سيارتنا كالسهم فى طريق الجيزة ... ولكن الجميلة
نظرت فى مرآة السيارة العاكسة ، وصاحت :
— إنه يتبعنا ...

وضاعفت سرعتها ، فنظرت خلفى فإذا سيارة الرجل منطلقة
خلفنا حقيقة بسرعة زائدة ، فقلت للراكبين معى :
— ما الذى حصل ؟ ...

فارتبكت المرأة ، وتردد صديقى قليلا ، ثم قال :
— يظهر أننا ونحن ندور بالسيارة قد ارتكبنا مخالفة ! ...
فصدقت ، وسكت ، واجتازت السيارة الجيزة ، واندفعت
فى طريق الهرم .. ونظرت الحسنة فى المرآة العاكسة وصاحت :
— إنه أخذ يقترب منا ...

فصاح بها صديقى :
— ضاعفى السرعة ... أسرعى ... أسرعى ... إذا لحق بنا
فقد هلكنا ...

فأسرعت الجميلة ! ... ونظرت خلفي فإذا الرجل يسرع في أثرنا هو الآخر ... فلم أتمالك ، وقلت :

— عجباً ! ... ماذا يريد منا هذا الرجل ؟ ... لو كنا صادمناه على الأقل أو ألحقنا به ضرراً ظاهراً ؛ لكان له بعض العذر ، ولكن مخالفة بسيطة يطاردنا من أجلها هذه المطاردة ، ويرغمنا على هذه السرعة الخطرة ، ويعكر علينا صفونا ويكدر علينا مزاجنا ... لعنة الله على هذا السخيف ! ...

فخيل إليّ أن صديقي يقول في نبرة مرتجفة :

— حقاً ... إنه سخيف .

وكنت قد أغرقت في شروذ وسهو ، ولم أفكر إلا في هذه المجازفة بأرواحنا بهذا الإسراع المهلك بغير ضرورة ، وقلت في نفسي : أبلغ بنا الجبن إلى هذا الحد ؟ ... فلا يخطر في بالنا أن نواجه الرجل ونناقشه بالحسنى ، فرمينا اقتنع بالمعروف ...

ونصارحتهما بهذه الفكرة ، فابتسما ولم يحيرا جواباً ... وأمعنا في الصمت والقلق ، كما أمعنت السيارة في ذلك السباق المخيف ، وكانت سيارة الرجل المطارد في تلك اللحظة قد أوشكت على اللحاق بنا ... فصاح صديقي بالحسنة :

— خير حل أن تعرجي بسرعة يساراً وتأخذي طريق العودة ،

وهو ما لم يفكر فى أننا سنفعله ، وبذلك يتعذر عليه أن يلحق بنا ...

وأدارت الجميلة عجلة القيادة فجأة ؛ فتحولت السيارة يساراً وما كادت تمرق فى طريق العودة ، حتى وجدنا سيارة الرجل المطارد ، قد عرجت هى الأخرى يساراً ، لا من الممر المعد لذلك بل مقتحمة الرصيف ... واعترضتنا وسدت علينا الطريق ... وعندئذ بادر صديقى صارخاً بالسائقة :

— اقتحمى الرصيف أنت أيضاً خلفه وامرق سريعاً ...

وهنا نفذ صبرى ، ففتحت باب السيارة قائلاً :

— هذه تصرفات أطفال ... أنزلونى وأنا أتفاهم مع هذا الرجل ...

فصاحبنى ، وهما يجذبان كمى :

— تفاهم ؟ ... مستحيل ... مستحيل ... الزم

مكانك ... إنا سننطلق ... لا بد من الهرب ...

فأنقذت ذراعى منهما ونزلت وأنا أقول لهما :

— إذا أردتما العبث فأنا لست فى سن العبث، ولا يليق بى هذا الكر

والفر .. اذهبا أنما واتركانى أحادث الرجل فى أمر هذه المخالفة

البسيطة ، وأسوى الموضوع معه باللطف واللين ...

وكان الرجل قد نزل من سيارته ، وأقبل يشتمد نحوى ... فلما
رأت السائقة الجميلة وصديقى ذلك ؛ لاذا بالفرار ... واخترقا
بالسيارة الرصيف ، والرجل يشيعها ببصره ، حتى اختفت عن
الأنظار ... فاستأنف سيره نحوى إلى أن بلغنى فابتدرنى قائلاً :
— وقعت فى يدى أخيراً يا مجرم ! ...

فنظرت إليه بعتاب . وقلت بتسامح وهدوء :
— مجرم ؟ ... وأنا لست بسائق السيارة ولم أسق قط سيارة فى
حياتى ... ولا أعرف كيف تسير ولا كيف تدار ! ...
— طبعاً هى التى كانت تسوق وتقود ، وكنت أنت يجوارها
تنظر فى عيونها السود ...

— آه ... لا تذكرنى بعيونها ... إنى والله من بهرتى لم أدر ما
لون عيونها !! ... أسود هى أم رمادية أم عسلىة ... وإنى لمندهش
لرجل مهذب مثلك ، كله ذوق ، ونظر كيف يتصرف هكذا مع
فاتنة كهذه ... هبها يا سيدى خالفت وأخطأت ... ألا يحسن
بك أنت أن تتساهل ؟ ...

— أتساهل يا سافل ! ... من تحسبنى حتى أتساهل فى هذه
الأمور ؟ ... ولكنى سأريك أن الذى أمامك هو رجل
وأخرج فى الحال من جيئه مسدساً صغيراً ما أن لمحتة فى

— ١٤٣ —

يده حتى هرب دمي ، ولكنني تجلدت ، واعتصمت بالهدوء
وتكلفت الابتسام ، وقلت ملاطفاً :

— اللهم عفوك ورضاك ... أتريد قتلي يا سيدي لمسألة بسيطة
كهذه ؟ ...

— بسيطة ! . بسيطة يا وغد ؟ . تسمى هذه المسألة
ببسيطة ! ...

— أقصد ... وأنت الصادق ... أنها لا تحتاج إلى غضبك هذا
كله ... إنها مما يقع في كل يوم ... خصوصاً من سيدة جميلة
كهذه يغتفر لها كل شيء ...

— يغتفر لها كل شيء ؛ إلا سوء سيرها ! ...
— سيرها والله كان بمنتهى الحذر ، لولا ظهورك أنت
المفاجيء ولعل هذا هو الذي أوقعها في الارتباك ...
— طبعاً ظهوري المفاجيء لا بد أن يربككما ويوقعكما في
الحرج والضيق ! ...

— أكثر من ذلك يا سيدي ، وأنت الصادق ، لقد حلت بيننا
وبين المتعة بتلك النزهة اللطيفة ... ولو كنت تكرمتم علينا
وتفضلت فأغضيت عن الموضوع ومررت مر الكرام وتركتنا
نواصل سيرنا ونزهتنا ومتعتنا ، لكنت ظفرت منا بالأسنة تلهج

— ١٤٤ —

بشكرك ، والدعاء لك ، والثناء عليك ا ...

— ما شاء الله ا ... إني لم أر في حياتي أصفق منك وجهاً ...
إني أقسم أن في استطاعتي الآن أن أريق دمك برصاصة وأنا مرتاح
الضمير ...

ولمعت عيناه بأشعة أرعبتني ... فتوسلت إليه أن يبعد المسدس
عني ، وجعلت أستعطفه وأقول له :

— مهلا يا سيدى ... مهلا ... هدى أعصابك الثائرة ...
مهما يكن من أمر ، فما ذنبى في الموضوع ؟ ... ولماذا تحملنى أنا
مسئولية الحادث ، وما أنا في الواقع غير واسطة خير ... نزلت
كى أتفاهم معك ، وأزيل من نفسك كل أثر سىء ...
— عجباً ا ... وهل تصورت أنى أقبل أن تكون أنت واسطة
خير ورسول صلح بينى وبينها ؟ ...

— وما المانع ؟ ...

— أنت الذى يصلح بينى وبين شريكك ؟ ... وهل أَرْضى
هذا الوضع ؟ ... وهل هذا معقول يا ... يا بارد ...
— كنت أحسبه تصرفاً سليماً ا ...

— هذا تصرف في منتهى الجرأة والوقاحة ا ...

— لا حول ولا قوة إلا بالله ا ... أعترف بأنى عجزت عن

إرضائك ... وفقد الأمل في فهمك أو فهم ما تريد ، فافتلنى إذا
شئت ... ولكنى أرجو منك وأنا ألفظ الروح أن تفهمنى على
الأقل : لماذا أنا مت ؟ ... لو أنى تسببت ، لا سمح الله ، في خرق
« فردة كوتش » لكان هذا سببا معقولا لقتلى ، ولكن أموت يا
ناس من أجل مسألة تافهة ! ...

— تافهة ؟! ... يا نذل ! ... في أى عصر نعيش حتى نرى
هذا التبجح الغريب ، والاستهانة بهذا الجرم الخطير ! ...
— بل في أى عصر نعيش يا سيدى حتى نرى نفساً حرم الله
قتلها نذهب في مخالفة الحكم فيها لا يزيد عن ١٥ قرشاً ؟ ...
— مخالفة ؟ هذه جناية ...

— أؤكد لك أنها مخالفة ... إلى رجل أعرف القانون ...
— اخرس ... أنت رجل مستهتر ...
— وأنت رجل متشدد زيادة عن اللزوم ...
— يا للصفافة ! ... ألا تريد منى أن أتشدد دفاعاً عن حقوقى
الشرعية ! ...

— حقوقك يا سيدى محفوظة ... ولو كان حصل لك أو
حصل لها أى ضرر ...

— ألم يحصل ضرر ؟ ... ألا تريد أيضاً أن ترى الضرر الذى

(أرى الله)

— ١٤٦ —

لحقنى ؟! ...

— لا أقصد ذلك يا سيدى ... وأنا معترف أن حكمى فى هذا
لا يعتمد عليه ، وأنا مستعد لإجراء معاينة أو فحص بمعرفة خبير
يكشف عليها ...

— يكشف عليها ! ... اخرس يا بدىء ...

— أنا والله لم أعد أدرى كيف أرضيك ؟ ...

— لا يرضينى شىء سوى قتلك والشرب من دمك ، وغسل
عارى بهذا الدم النجس ! ...

— لماذا يا سيدى المحترم ؟ ... ماذا صنعت فى دنياى حتى
أستحق هذا ؟ ...

— هذا هو الجزاء الوحيد لذلك الأثيم الذى يعتدى على أعراض
الأسر ؟ ...

— أعراض الأسر ؟ ... وما دخل أعراض الأسر فيما نحن
فيه ؟ ...

— وبماذا تصف علاقتك الشائنة بزوجتى ... ؟

— زوجتك ؟ . وهل حصل لى الشرف بمعرفة
زوجتك ؟! ...

— ألا تعرفها ؟ ...

— ١٤٧ —

— ولم أرها في حياتي ... وأقسم لك ..

— ومن عشيقتك إذن ؟ ...

— عشيقتي ؟ ... لا يا سيدى الفاضل ... لا تجرح

شعورى ... أنا رجل مستقيم لا صلة لى بامرأة ، ولم أعرف
امرأة ...

— والتي كانت إلى جوارك فى السيارة ... أهى امرأة ...

أم ؟ ...

— آه ... لك حق ... ولكن القصة على وجهها الصحيح هى

أنى كنت أسير فى طريقى إلى منزلى ، كما يحدث لكل إنسان ...
وإذا سيارة تقف على مقربة منى ... فأصعد ... وإذا بجوارى
امرأة ...

— كما يحدث فى كل « أتوبيس » ! ...

— بالضبط ...

— وهل تعرف هذه المرأة ؟ ...

— أبداً ...

— والتقطتك هكذا من الطريق بدون سابق معرفة ؟ ...

— هذا والله الذى حصل ...

— ذلك شىء مشرف جداً لهذه المرأة ... أن تصبح هكذا

كالسيارة العامة . تلم الشوارع من تعرف ومن لا تعرف ...
 — لا تظلمها يا سيدى ... الموضوع له أصل ...
 وهممت أن أقص عليه حقيقة ما حدث بالصراحة والصدق
 والتفصيل ، ولكن توقفت في الحال ، وأدركت أن ذلك
 مستحيل ... إذ لا بد من ذلك من أن أذكر له وجود صديقى
 الذى دعانى ، والزوج من غير شك لا يلمحه ؛ لأن هذا الصديق
 كان فى المقعد الخلفى من السيارة المغلقة ... ولم يكن التفات
 الزوج موجهاً إلا للجالس بجوار زوجته فى مقعد القيادة ، وهو أنا
 ولا فخر ... فإفشاء أمر صديقى المجهول ، لن يغير من الموقف
 كثيراً ... فالزوجة متهمة فى الحالين ... ومن يدرينى أن الزوج
 سيصدقنى إذا حاولت نقل عبء الجريمة عن كاهلى إلى كاهل آخر
 لم يره ، وألاً أخرج من المحاولة إلا بخسة النذالة والجبن والاعتياب
 والنيمة ... ثم إنى قد « لبخت » فى أول حديثى ، ونوهت بعيون
 « الزوجة » وفنتها وموقع سحرها من نفسى ، ومتعة النزهة معها
 التى عكر صفوها الزوج بظهوره ... أنا إذن متلبس بالتهمة لآذانى
 بأقوالى وأفعالى ... ولا توجد قوة ولا حجة فى مقدورها
 تبرئتى ... ولا فائدة فى إنكار ولا جدوى فى دفاع ، فلأسلم الأمر
 لله ... وليعتقد الرجل ما يعتقد ، وليكن ما يكون ...

ورأى الزوج صمتى وإطراقى ، فاستحثتى قائلاً :

— تكلم ... ماذا فى استطاعتك أن تقول ؟ ... بماذا تعلل وجودك إلى جوار زوجتى فى السيارة ؟ ... وبماذا تبرر هروبكما منى ، وأنا أتبعكما من مصر إلى الجيزة ، إلى الهرم ؟ ...

فلم أجد فى رأسى رداً نافعاً ... فلا الحقيقة تصلح أن تقال ، ولا الصدق بمنج فى مثل هذه الحال ، فاكتفيت بأن قلت :

— عقدة العقد يا سيدى هى فى إيجاد هذا التعليل المقنع ...

— اعترف إذن ... وما دمنا وصلنا إلى هذه النتيجة ، فلا بد من تصفية الموقف الآن بكل عقل وحكمة وهدوء ... كما يليق برجلين مهذبين ... أجبني أولاً بكل صراحة ... أنت تحبها طبعاً ؟ ...

فلم أر داعياً للاهتمام بالجواب الصحيح ، فالمسألة بلغت حداً أصبح فيه الكذب مساوياً للصدق ... وربما كانت الأكاذيب فى هذا الظرف أقرب إلى التصديق من الحقيقة ، وما دمنا لم نعد نستطيع قول الحقيقة فلنجرّب الكذب ، فقد ينجينا من هذا الحرج الذى لا مخرج منه ... فقلت له :

— تسألنى هل أحبها ؟ ... أحبها بجنون ، ولا أنام الليالى ...

— وهى تحبك طبعاً ؟ ...

— ١٥٠ —

— حب العبادَة ... ولا تنام الليل ...
فكظم غيظه ، وتكلف الهدوء ، وقال :
— ومنذ متى يعرف أحدكم الآخر ؟ ...
— منذ نصف ساعة ...
فحملق في وجهي وقال :
— ما هذا الخلط ؟ ... أهذا معقول ؟ ... أجبني بصراحة
قلت لك ! ..
— إني أجيبك بما أرى ... فاستخرج أنت الصحيح من
الزائف ...
— إجابتك الأخيرة ظاهرة الكذب ... فقل الحقيقة من
فضلك ...
— تلك هي الكذبة الوحيدة في كل ما أجبته به ... اغفرها
لي ...
— بما لا شك فيه أن معرفتكما لا بد أن تكون قديمة ...
— فلأقل الصديق إذن : حقاً إننا تقابلنا ، وتعرفنا منذ عام
وكانت العلاقات بيننا دائماً طول هذه المدة على ما يرام ...
— عظيم جداً ... اسمع الآن ما استقر عليه عزمي : إني
سأطلقها ، وعليك أنت أن تتزوجها ... ولا تأمل أن يكون

للمسألة حل آخر غير هذا ...

فبلعت ريقى ، وكتمت ما بى ، وتكلفت الابتسام ،
وأظهرت الرضا ... ذلك أن المهم فيما أنا فيه هو الخروج من
اللحظة الحاضرة ، والخلاص من المأزق الحالى ، وإلى أن أعود إلى
دارى قد يأتى الله بالفرج ... وإلى أن أمثل بين يدى المأذون لعقد
ذلك الزواج ، أكون قد قابلت صديقى وصفعته وأقنعت به بأن يحل
محلى وأن يخلى سبيلى ...

واتقنا على ذلك أنا والزوج ... وتصافحنا وأركبني سيارته ،
وأوصلني إلى بيتى ، الذى لم يقدر لى أن أصل إليه فى سيارة
زوجته ... وانتظرت ... وهأنذا أنتظر إلى اليوم ... فلا الزوج
قد ظهر ، ولا الزوجة ، ولا الصديق ... ولا طلاق حصل ولا
زواج طلبونى إليه ، أين اختفى عنى أبطال تلك القصة ؟ ...
وماذا تم فى أمرهم ؟ ... وما علاقة بعضهم ببعض الآن ؟ ...
أسرار لا أدرى عنها شيئاً ... ولا أريد أن أدرى ... كل ما أعرف
هو أنى صرت أجفل وأرتعد من كل سيارة تقف بقربى وتقودها
امرأة ...

فك نخب « الخطابة » ! ..

اهتزت الدنيا لخبر أذاعه البرق في كل مكان :
علماء الذرة قد اختفوا فجأة من أمريكا ، ولا يدري أحد
مقرهم ولا مصيرهم ...

وعلقت الصحف على ذلك الاختفاء الغريب بقولها : إنه
ولا ريب اختطاف قامت به جماعة من الجواسيس لحساب
بعض الدول ، ولكن الحقيقة التي وقعت لا يمكن أن تخطر على
بال صحافة ولا خيال صحفيين ! ... فقد حدث الأمر على هذا
الوضع :

رجل مستقر في بهوه الفاخر قرب المدفأة ، قرأ في جرائد
المساء هذا الخبر :

« صرح رئيس اتحاد العلماء الذريين الأمريكي بأن الأبحاث
الجديدة في شؤون الذرة ستتيح بعد عام صنع قنبلة تفوق في قوة
التدمير القنبلتين اللتين ألقيتا على هيروشيما وناجازاكي بمقدار
ألف مرة ... » ...

فالتقى الرجل بالصحيفة ... ونهض وقد دبر في نفسه أمراً ...
هذا الرجل لم يكن سوى : « آل كابوني » رئيس العصاة
الخطير وصاحب الملايين الشهير ! ...

كان قد اعتزل العمل الحرام ، وقد حذره الأطباء من داء
القلب ، وشعر بدنو الأجل ... ولكن موهبة التنظيم والتدبير لم
تزل منها في عقله بقية ... ونفوذ على مهرة القتلة والمهريين
وحذاق اللصوص والخطافين لم يزل له قوة ... فبذل من المال
والحيلة ما لا يقف في سبيلهما شيء ... حتى ظفر بخطط اتحاد
العلماء الذريين الأمريكيين برئيسهم ... ووضعهم في قصره
الفخم في « فلوريدا » ... ودعاهم إلى مأدته ... وقدم إليهم
أطيب الطعام وأفخم الشراب ... ثم قام في آخر العشاء يرفع
كأسه قائلاً :

— في نخب « العصاة » ... عفواً أقصد « الاتحاد » ! ...
ونظر إليه رئيس اتحاد العلماء قلقاً ، وهو لا يدري أكان هذا
الخطأ منه مقصوداً ؟ ... أترى هذا الرجل يسخر منهم أم
يحتفى بهم ؟ ...

ولم يمهلهم « آل كابوني » ، فقد مضى يقول :
— لقد دعوتكم إلى قصرى لأكرمكم ... ومن أحق منكم

اليوم بالتكريم منى ١؟ ... أرجو قبل كل شيء أن تغفروا الطريقة
التي أحضرتكم بها... لقد خشيت أن أرسل إليكم بطاقات
دعوة ، وأكتفى بها ، فلا تعنوا بتشربقى ترفعاً ، أو استغراباً ،
أو رهبة ، أو أنفة ... فأنتم ولا شك تعتقدون ألا صلة تربط مثلى
بمثلكم ، ولا تشابه بين مهنتي ومهنتكم ، ولا تجانس بين
مشاعري ومشاعركم ... ربما كان هذا صحيحاً لأول
وهلة ... وإنى لست من الوقاحة حتى أزعم لنفسي أن أقف بين
جماعة من الأبطال ... استطاعوا فى طرفة عين أن يقتلوا مئات
الآلاف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ... ما من أحد
يكبر عملكم مثل ما أكبره ... وما من أحد يقدر جهدكم مثل ما
أقدره ... كلما تذكرت أن كل مجدى قائم على عدد من
الرجال — والرجال فقط — قتلهم فى شيكاغو أنا وأعوانى ...
عدد لا يزيد على خمسمائة رجل ... وأنا كل شهرتى قائمة على
تلك المجزرة التى أبدت فيها كل خصومى عام ١٩٢٩ فى
جراج « يوم سانت فالنتين » ! ... لقد كان أعوانى كثيرين ...
أكثر منكم عدداً ... ولكننا لم نستطع أن نفعل أكثر من ذلك ...
أما أنتم فقد استطعتم أن تبيدوا خمسين ألف نسمة دفعة
واحدة ... اعبدرونا ... لقد كانت وسائلنا أولية محدودة ...

كل ما فى أيدينا كانت المسدسات والمترليوزات ، وهل يخطر فى
بالنا أن المستقبل سيكشف عن رجال مثلكم ، فى أيديهم هذه
القدرة ، وفى قلوبهم هذه الجرأة ؟ ... إني أخاطبكم وفى نفسى
شعور من الخجل والمذلة والضآلة .. فكل عملنا بالقياس
إليكم عبث صبية ولعب صغار ... وقد منحونى من أجله
لقب « عدو الشعب رقم واحد » ولست أدري ، ما هو اللقب
الذى يليق برئيس هذه الجماعة ؟ ... أعنى الاتحاد ... أحمد الله
أن زماننا قد فات ؛ وبطولتنا المزعومة قد طويت فى بطون
الصحف القديمة ... أما اليوم فهو يومكم ... وهذا الزمان هو
زمانكم ... ولكل زمن رجاله ! ... فاسمحو لى بالأصالة عن
نفسى وبالنيابة عن جماعتى أن أحىي جماعتكم ، وأن أرفع كأسى
فى نخب مجدكم ... ليحيى الرجال الجدد ! ... لتحيى العصابة
الجديدة أعنى الاتحاد الجديد ...

وشرب « آل كابونى » قدحه فى جرعة واحدة ... وجلس
بأدب وتواضع ... وقد أرخى أهدايه ، ونظر إلى الأرض ؛ فلم
يصر رؤوس ضيوفه المطرقة ، ولا عرقهم المتفصد من الجباه ، ولا
خجلهم المتصبيب قانياً من الوجوه ...
وخيم سكون قطعه آخر الأمر رئيس الاتحاد بنهوضه ... فهض

مع كل الأعضاء ... وانتهت الوليمة صامتة كأنها جنازة ...

وانصرف العلماء إلى منازلهم واجمين ، لا يجروا أحدهم على النظر إلى الآخر ... واقترح الرئيس في النهاية أن يبقى أمر هذه الوليمة سراً ...

ولم ينم « آل كابوني » في تلك الليلة ... فقد كان تأثيره شديداً ، لقد أيقن أن آخرته قد دنت ، وأن صفحة حياته قد طويت ... وأنه قد ختمها كما ينبغي لها من الروعة ، وأنه أسلم الصولجان ، ولفظ في خلفائه خطبة الوداع ، على أحسن ما ينبغي وأجمل ما يشتهي ... فحق له الرقاد الأخير ! ...

وأصابته آخر الليل نوبة قلبية ... وأسلم الروح ... وظهرت الصحف في اليوم التالي ، وكأنه القدر هو الآخر أراد أن يتكلم على طريقته ، أو يمزح أو يجد ... لا أحد يدرى مراميه ! ...

كل ما حدث هو أن صورة « آل كابوني » نشرت مصادفة بجوار صورة « رئيس الاتحاد » ! ... الأول بمناسبة وفاته

والثاني بمناسبة عودته ، بعد اختفائه هو وأعوانه ، من « مهمة سرية فنية » ! ...

أسماء زوجين ! ..

جلس يصغى بانتباه إلى جهاز الراديو وقد تصاعد منه صوت
ناعم بديع :

«يوضع اللحم في البرام... ثم يغطى بالبطاطس.. وتفرى بصلة
فرياً ناعماً جداً... وتحمر في السمن حتى يحمر لونها ،
فيضاف الدقيق ويقلب حتى يصبح ذالون بني فاتح... ثم تزاح
الصلصة من على النار ، وتضاف مع البقدونس والملح والفلفل
والبهار ...»

إلى آخر ما جاء في برنامج التدبير المنزلى ذلك اليوم...
وكان ذلك المستمع الكريم يسمع بقلب يخفق هياماً ، وفؤاد
يطير شوقاً ، ولعاب يسيل حناناً... وبرح به الغرام... ،...
والأذن تعشق قبل العين أحياناً... فلم يطق صبراً وقام إلى أهله
يعلن إليهم :

— لا بد لي من الزواج بهذه المرأة...

فسألوه :

— هل تعرفها ؟ ...

— لا أعرف إلا إذاعتها اللذيذة فى الراديو ... إنها تهز قلبى ...

وكان صاحبنا هذا من أولئك الذين يخلطون بين القلب والمعدة ، فإذا سأله طبيب يوماً : أين معدتك ؟ ... أشار إلى قلبه ... وإذا سأله : أين قلبك ؟ ... أشار إلى معدته ... وكان لا بد للمرأة التى تريد استلاب قلبه من أن تستولى على المعدة أولاً ... فإذا ملكتها ملكت كل شىء ...

وتمت مراسم القران ... وجاءت ليلة الزفاف ... وأحييت الحفلة إحدى المطربات جعلت تغنى طول الليل : إحنا الاثنين ، والعين فى العين ، أهنا قلبيين واسعد عريسين ... » والعريس يتمل فى مقعده ضجراً من هذا الغناء ، ويود الكلام فى موضوع أعز عليه وألذ من هذا الهراء ... وضاق صدره آخر الأمر ولم يحتمل ... فانحنى على عروسه وقال لها باهتمام :

— حدثينى ... بعد أن وضعت اللحم فى البرام ... لقد قلت إنه يجب أن تفرى البصلة فرياً ناعماً جداً وتحمر فى السمن ... ما قولك لو أضفنا مع البصل شيئاً من الثوم والكزبرة والكمون ؟ ...

فنظرت إليه العروس طويلاً ، ولم تجب ... ومرت الأيام الأولى من أيام الزوجية ... والعريس يتقلب على

الشوق ويتقلّى ... منتظراً اليوم الذى تدخل فيه زوجته المطبخ ،
وتلبس فوطتها ، وتشمر عن ساعديها ، تطبخ له تلك الأصناف
الشهية التى طالما شفت أسماعه بوصفها اللذيذ فى الراديو ...
ودخلت الزوجة المطبخ أخيراً ، وزوجها يباركها ويسأل الله
أن يحميها ... وعاد من عمله فى الظهر وهو يتلمظ ويقول :
« صلوات الله على تلك التى ستسعدنى بالأكلة المثالية ،
والطبخة النموذجية ... »

وانتظر ساعة ... ثم ساعة ... ثم كاد العصر يؤذن ...
فخرجت الزوجة النشيطة من المطبخ والعرق والهباب يسيلان
معاً من وجهها وهى ملبوخة من رأسها إلى قدمها ... وقالت له :
— لا مؤاخذه ! ... أنا استسهلت خوفاً من التأخير ، عملت
لك طبق بيض مقلّى ...

فأخفى الرجل حسرتة وكتّم غضبه ... ومد يده صامتاً إلى
طبق البيض المقلّى .. كما قالت ... فوجد سمنه قد تبخر
وبياضه قد احترق ، وصفاره قد تحجر ...

ودقت الساعة الرابعة ... فبادرت الزوجة إلى ثياب الخروج
فارتدتتها ، وانطلقت مسرعة كأنها على موعد هام ...

وما وافت الخامسة والربع ، حتى سمع الزوج المسكين
صوت امرأته الحنون يتصاعد من الراديو ، ويذيع على

— ١٦٠ —

المستمعين المصدقين :

— « يوضع اللحم فى البرام ... ثم يغطى بالبطاطس ...
وتفرى بصلة فرياً ناعماً جداً وتحمر فى السمن ... إلخ » ...
وأطرق الزوج ملياً ... ولم يعد يدرى ماذا يفعل :
هل يضحك ؟! ... هل يبكى ؟! ...

اعترف القاتل ! ..

كان موقف ذلك المتهم عجباً أمام قضااته ! ... ذلك الشاب
النحيل الجسم، الشاحب الوجه ، الهادئ الطبع ، الباسم
الثغر ... أهو قاتل في قفص اتهام ؟ ... أم شاعر في خميلة
ريحان !؟ ...

كان يشرف من مكانه على قاعة الجلسة ، كأنه مؤلف
يشرف من مقصوره على رواية من تأليفه ... كل شيء يجري
أمامه في المجرى الذي تخيله ودبره ... وكل شيء سينحدث
طبقاً لما ارتضاه وتوقعه ... لم تكن في نظراته حيرة المتطلع إلى
الغيب ، ولم يكن في قلبه قلق المترقب لصوت القدر ... كأنما
يعرف أنه هو الذي نسج غيبه ، ووضع قدره ...

كانت المحكمة غاصة بالحضور ، وسيج الشرطة يدفع عن
الأبواب أمواج الجماهير ... فتلك جريمة اهتمت لها البلاد
واهترزت لها الدوائر السياسية ...

وقف النائب العام يطلب رأس المتهم قائلاً :

(أرى الله)

« مهمتى هينة يا حضرات القضاة ! ... فالتهم الذى بين أيديكم معترف بجريمته ، وقد دبرها بدقة ونفذها بإحكام ... فقد قتل عمداً مع سبق الإصرار والترصد ... المجنى عليه ، ذلك القطب السياسى المشهور ، بأن أطلق عليه رصاص مسدسه ... وهو فى الطائرة بين الإسكندرية والقاهرة فأصابه فى صدره الإصابة الموضحة فى تقرير الطبيب الشرعى ، والمؤدية ... إلى وفاته وتتلخص وقائع الجريمة كما شهد بها ضابط اللاسلكى فى الطائرة ، فى أنه فى ذلك اليوم لم يكن بها غير راكبين : هما المجنى عليه والمتهم ... وقد لاحظ ضابط اللاسلكى كما لاحظ قائد الطائرة بعض آثار الإضطراب على المتهم وهو يهيم بركوبها ، ولكنهما لم يعلقا على هذه الملاحظة اهتماماً ، إلى أن حلقت الطائرة وطارى حتى كادت تقترب من القاهرة ، وإذا بضابط اللاسلكى يحس حركة خلفه ... وكان الباب الموصل بين مكان الركاب ومكان القيادة مفتوحاً ... فالتفت ... فأبصر المجنى عليه يخرج من مقعده والجانى أمامه والمسدس فى يده فهرع إليه وانتزع منه آلة الجريمة ، ووضعه تحت الحفظ ، وقد سئل الجانى فاعترف بالقتل العمد ... وقد ظهر من التحقيق أن

الجاني — وهو مدرس فى إحدى المدارس الحرة بالإسكندرية — كان كثير التردد على القاهرة ... وأنه — كما شهد ناظر مدرسته — فى حالة مالية مرتبكة ، وأنه كثير العزلة ، محاط بالغموض ... وشهد زملاؤه أنه يكثر من الكتابة خفية فى أوقات فراغه إلى جهة مجهولة ... وطالما رأوا على وجهه علامات الاهتمام والتفكير إلى حد الانفعال ، وهو يتلقى أو يقرأ خطابات كثيرة ترد إليه لا يعلمون مصدرها ... وكانوا يشعرون كأن المتهم غريب بينهم ... فهو قليل الكلام معهم ، بعيد عن مجالس مرحهم ولهوهم ... لم يروه مرة ضاحكا ولا عابثاً ... كان دائم التفكير فى أمر لا يدركون كنهه ... وكان يبدو عليه أنه يتحاشاهم ويتجنب عشرتهم ... وفى يوم الحادث شهد زملاؤه المدرسون أنه تلقى بريقة ؛ فتغير وجهه بعد تلاوتها ، وسأل عن الساعة ... وقال وهو مسرع مضطرب : إنه ذاهب إلى المطار ليركب الطائرة إلى القاهرة ... وقد أبصروه فى تلك اللحظة يخرج مسدساً من ثيابه ، فحصه ثم رده إلى جيبه ... كل هذه الوقائع أثبتتها التحقيق وأقرها المتهم ... نعم ... المتهم معترف بما اقترفت يده ... ولكن السؤال الحائر على كل الشفاه : هل له شركاء ؟ ... ولم يستطع التحقيق ، للأسف ،

أن ينتزع اسماً واحداً من فم هذا المجرم ... كان فى مراحل التحقيق على هذا الهدوء العجيب الذى ترون ... ينكر أن لأحد غيره يداً فيما وقع ... لم يستطع الاستجواب الدقيق ، ولا القرينة المعرجة ، ولا الحيلة البارة ، ولا الحجّة القارعة ، أن تستثيره وتستحثه وتخرجه من هذا الثبات وهذه الابتسامة ! ... فى حياتى القضائية الطويلة لم أصادف مجرماً بهذه القوة ولا بهذا الدهاء ... ما من شىء استطاع أن يهز هذا الشاب الباسم ليتهار ويفرغ ما فى جوفه ... جبل من الجليد محاط بالضباب ... بل حصن من الهدوء الصوفى يحمى ولا ريب خلفه جماعة من الأعوان وجمعيات من السفاكين والإرهابيين ... إن النهج الذى سار عليه القاتل قد أوقع المحققين فى حيرة ... إنه لم يشأ أن يخوض حتى فى الغرض السياسى الذى من أجله ارتكب الجريمة ... كان دائماً ، كما تبصرونه الآن بعيداً عن كل زهو أو فخر ... لا تخدعه ألفاظ البطولة ، ولا يحاول أن يلبس عمله أردية براقة من عبارات الوطنية أو القومية ، ولا يريد أن يوجد لفعلته تبريراً أو تفسيراً ! ...

كل ذلك من فرط حرصه، حتى لا يجعل تحت قدميه مزلق...

أو يحفر بلسانه سراديب تنساب من بين أقواله إلى حصن أسرارهِ ... كانت كلماته الوحيدة :

— « لقد قتلت متعمداً ، واستحق رأسى المشنقة ، فعجلوا

بها ، ولا تضيعوا وقتى ووقتكم فيما لا طائل وراءه ! ...

هذا مجرم أدى مهمته ، ويريد أن يمحي سريعاً ويباد ، كما تباد وثيقة تحوى أمراً يراد إخفاؤه عن العيون ! ... إن إثم هذا الرجل لا ينتهى بتنفيذ حكم الإعدام فيه إنه يموت ليتمكن لجرائم الاغتيال من أن تستمر بعده ... إذا فتحتم جمجمة هذا الإنسان وجدتم سلسلة من الجرائم مقرونة بأسماء الضحايا الذين يعلم هو متى تدنو ساعتهم ، ويعرف هو اليد التى ستبطلش بهم ! ...

يا حضرات القضاة ... أمامكم رجل خطر ! ... لا يغرنكم هذا القناع الحريرى من الوداعة والدمائة ... إنه يخفى تحته نفساً خبيثة لمجرم من أشد المجرمين فتكا ... وسأشرح لكم ما امتلأت به ملفاتى وصفحاتى من تفصيلات عن نفسية هذا المجرم ودوافعه السياسية ! ...

وسكت النائب العام عن المرافعة لحظة ، ليتناول جرعة ماء من كوب فوق منصته بحركة متسقة فيها جلال وثقة ... وجعل

المتهم يرمقه بنظرات امتزجت فيها الرقة بالسخرية ... ومضى النائب العام فى الكلام طول ذلك اليوم ، والكل مصغى إليه ، بأذان مرهفة وعيون مشدوهة ، إلا المتهم ... فقد كان النعاس قد دهمه منذ ساعات ، فنام فى مقعده حتى انتهاء الجلسة ، فأيقظه الحراس ليقودوه إلى سجنه ... ثم عادوا به فى اليوم التالى ، ليصغى إلى بقية كلام النائب العام ، فمرافعته لم تنته بعد ، ولا يدرى أحد متى تنتهى ...

طفق المتهم يرقب يد النائب تطوى من ملفاته الصفحة بعد الصفحة ، وهو يتمنى أن يطوى مع كل منها يوم من أيامه ، فقد بدأ الضيق يجثم على صدره ، والضجر يأكل من صبره ... أكثر مما ينبغى ... ما شأنه بكل هذا الذى يسمع ؟ ... إنه لم يعد من سكان هذه الأرض ... إنه فى طريقه إلى العالم الآخر ... مثله مثل راكب قطار قطع صلته ببلده ويمم شطر بلد بعيد ... فإذا أناس يستوقفونه ليسمعوه كلاماً طويلاً فى أشياء لا تهمه ولا تعنيه ... ولن تقف البلية عند حد هذا النائب ، فها هو ذا محاميه عاكف هو الآخر على ملفات أضخم من ملفات الاتهام ، وسيطلب هو الآخر أن يستغرق دفاعه الأيام ... وهو لم يوكل عنه محامياً ، ولم يرد فى قضيته دفاعاً ... ولكنها

المحكمة ندبت له هذا المحامى ، لأن إجراءات المحاكمة تقتضى أن يكون له من يدافع عنه ... رضى أو كره ... إنها « العدالة » ... هكذا أنفق المتهم الوقت بين إغفاء ويقظة كالإغفاء حتى انتبه فى فترة صمت لمح فيها النائب قد سكب ليرشف جرعة من الكوب ويمسح بمنديله العرق المتفصد من الجبين ، فلم يتمالك ... ونهض يخاطب هيئة المحكمة برفق وأدب ، وسخرية واستعطاف ... استطاع أن يخلطها كلها ويضعها فى نبرة أرغمت الجميع على الإصغاء :

« يا حضرات القضاة ... ما قصدت أن أقاطع مرافعة النائب العام ... فأنا من أشد المعجبين به ، المقدرين له ، المصغين بانتباه وتمعن إلى بلاغته ، وإلى المدرك أن الظرف يستوجب منه هذا الإسهاب ... فالجنى عليه شخصية كبيرة ... والجمهور مهم بالقضية ... والمجتمع يتحدث فى بواعثها ومراميها ... فلا بد أن يقف النائب العام بشخصه المحترم يترافع يوماً على الأقل أو يومين ... بمبرر أو غير مبرر ... وأن يجهد نفسه حتى يجف حلقه ويسيل عرقه ، ليكون جديراً ببناء الناس فى المجالس على همته البالغة ومرافعته الرائعة ... وإني لمدرك أيضاً أن تفسح المحكمة صدرها ... وأن تطيل إنصاتها ، وأن تمد فى الحبال ... وأن تعنى

بكل ما يقال ؛ لتظفر بمدح الناس لعدالتها ونزاهتها ؛ بل إني لأفهم حتى هذا المحامي المنتدب للدفاع عني ، وهو غارق الآن في ورقة لأذنيه كما ترون يهيم كلاماً طويلاً لن يقدم عندكم ولن يؤخر ... ولن يبدل من مصيرى ولن يغير ؛ ولكنه يأمل من ورائه نجاحاً عند الناس ومجداً ... أنتم جميعاً خدام « العدالة » ما فى ذلك ريب عندى ... ولستم موضع لوم إذا جعلتم « مولاتكم » على رأس موكب فخم يتهادى ، وسرتم فى ركابها صاخبين مختالين بين أنظار الحشد ، متمهلين فى كل خطوة أو متوقفين عند هتاف الجموع ... كل رجائى منكم أن تسرعوا بالموكب قليلاً ... ولا بأس عندى بعد ذلك أن تبنوا لأنفسكم صبيئاً على أنفاس رجل يموت ... ! ...

وجلس بهدوء كما نهض ... وخيم صمت بارد على القاعة ... قطعه رئيس المحكمة أخيراً بالتفاته منه إلى النائب العام يدعوه إلى استئناف مرافعته ، دون أن يجزؤ أحد على إبداء تعليق ... واستأنف النائب اتهمه حتى أتمه ، وختمه بطلب الحكم على المتهم بالإعدام ، طبقاً لنصوص القانون ... واتخذ مكانه ، وقال رئيس المحكمة : الدفاع فوقف المحامي وخلع منظاره ووضع فوق أوراقه وقال :

— « يا حضرات القضاة ! ... إذا كانت مهمة النائب العام هينة كما قال ، فإن مهمتى أنا عسيرة ، لا لأن هدفى إنقاذ رأس قاتل معترف بالجرم ؛ بل لأن هذا المتهم — لأول مرة على ما أعتقد فى تاريخ الدفاع — يقف من محاميه موقف العدو ... نعم ... هذا المتهم هو وحده عدوى فى القضية ... وهو وحده الذى أخشاه ويخشانى ، ويروغ منى وأروغ منه ، ويصمت عنى وأصمت عنه ... لقد شكنا النائب العام من فم المتهم المغلق ، وقد اعترف له ، فمن بالشكوى أحق وأولى ؟ ... وأنا لم أظفر من هذا الفم بغير قوله ساخراً :

— « إذا كان لا بد لك من واجب تؤديه فى المحكمة فاقرأ على روحى الفاتحة بصوت مرتفع ! ... »

هذا متهم يريد أن يموت ... فكان من الطبيعى أن يتخذ من النائب العام صديقاً ، ومن المحامى خصماً ... ولست أدرى ما الذى جعلنى أصر على منازلته ، وأمضى خفية عنه أبحت ، وأنقب حتى أهتدى إلى أشياء ستثير حنقه علىّ وغيظه منى ؟ ... ربما كان الباعث لى هو طلب المجد الذى تحدث عنه ، وتلك الرغبة فى الصيت عند الجمهور ؛ فليكن ... لا أحاول الزعم بأن رأس المتهم يهمنى شخصياً ... ولكن إنقاذه سليماً على الرغم منه مسألة

تعيننى ...

يا حضرات القضاة ... لن تسمعوا منى دفاعاً عن المتهم ،
ولكن ستسمعون قصة ... إليكم الوقائع مجردة ، كما تتبعتها ، بلا
تعليق ولا تنميق ...

من سنوات قليلة خلت كان المتهم طالباً فى كلية الآداب ...
وعارفوه فى ذلك الحين يصورونه لنا فى هيئة شاب مجتهد ، دمث
الأخلاق ، يؤثر العزلة ويميل إلى الشعر ... ولم يكن صاحباً ولا
عابثاً ولا مرحاً ... فسلخ أعوامه الأولى دون أن يثير التفات
أحد ... حتى كانت السنة الثالثة ... بدأ قليل من إخوانه يشعر
بنوع من الزمالة تتوثق بينه وبين طالبة معه فى عين الفصل ...
واستمرت هذه الصلة على نحو واضح فى السنة النهائية ، على الرغم
من جهود الفتى والفتاة فى إخفائها ... لقد كانا من طبيعة
واحدة ... متحفظة مغلقة ... ولكن الرباط الداخلى بينهما بلغ
من القوة والحرارة حد الإشعاع ... كان مجرد وجودهما معاً يشع
معنى من معانى الإخلاص والتفانى ، يثير فى الملاحظ لهما رجفة
ودهشة ... ولقد ظهر فيما بعد أن حبهما الصامت بدأت جذوره
فى مطلع السنة الأولى يوم تلاقيا فى الدراسة أول مرة ... ولكنه
قطع أكثر من غامين ينمو فى الخفاء حتى أينعت زهوره ،

وفضحت فيهما إرادة الكتان ... وكان بينهما عهد وهدف ...
أن ينجحا ويفوزا معاً بإجازة الآداب ، فيخطبها الفتى إلى
أهلها ... حتى يجد عملاً يكفل الرزق فيتزوجها ... واقترب
موعد الامتحان النهائى ، فكد الفتى وكدت الفتاة ، وبلغ بهما
الكد والجهد مبلغاً أنساهما الجسد وقوة احتماله ... لقد كان الحب
يلهب بسوطه هذين الجوادين ؛ ليركضا إلى الغاية ! ... وبلغ
الجوادان الهدف الأول واجتازا الامتحان ؛ ولكن أحد الجوادين
سقط ... سقط مريضاً بذات الرئة ... كانت هى الفتاة ...

ومن هنا تبدأ المأساة ... فقد ربط المرض بينهما بحبال ليست
من صنع البشر ...

وقد أسرع فخطبها إلى أهلها ... ولكن كفاحه فى سبيل
شفائها أمر يحير العقول ...

كانت أسرته رقيقة الحال ... وكذلك أسرته ! ... فصنع
المستحيل حتى عثر على وظيفة مدرس فى تلك المدرسة الحرة فى
الإسكندرية ... وجاهد جهاد الأبطال حتى تمكن من إدخال
خطيبته مصحة « حلوان » ... وأوصى الأطباء والممرضين ألا
يدخروا وسعاً فى العناية بالمريضة العزيزة ... فهو على استعداد
أن يدفع النفقات ، ولو من دمه ... وبذل دمه فعلاً وعقله وقوته

فى إعطاء دروس خصوصية فوق عمله المهرق بالمدرسة ، حتى
يجمع ما يدفع به ثمن التمرّيز والعلاج ، وكان لا بد له أن يراها فى
كل أسبوع مرة ، ليشجعها ويعينها على احتمال أعباء المرض ...
فكثرت أسفاره إلى القاهرة ... ولكن موارده على الرغم من
جهوده شحيحة ؛ فلجأ إلى الاقتراض من إدارة المدرسة ثم من
زملائه المدرسين ... ثم من المربين ... لقد صدق النائب العام
وهو يورد شهادة ناظر المدرسة بما وقع فيه المتهم من ارتباك مالى لو
أن الروح التى فى الجسد ترهن فى السوق أو تباع ؛ لما تردد هذا
الشاب فى رهن روحه أو بيعها لينقذ بثمانها حياة من أحب ...
استمعوا إلى خطاب من خطاباتة إليها :

« لو استطعت أن أشتري كل نسمة تتنفسينها بسنوات من
عمرى ... ما أعجز الطب يا عزيزتى ! ... لماذا لا تتقاسمينى
رئتى ؟ ... لو كان فى مقدورى أن أنفّس لك ؟ ... تجلدى أيتها
العزيزة من أجلى ... فالهواء الذى يحينى هو الذى يحمل رائحة
وجواك ... يجب أن تعيشى لأعيش ! ... »

وكانت هى بالطبع تجيبه ... ولكننى لم أعر على خطاباتات
إليه ... لأنه يخفيها على كما ذكرت ... فكل ما عندى خطاباتات هُوَ
إليها ، وقد أمكننى الحصول عليها ... استمعوا أيضاً إلى هذا

الخطاب منه رداً على رسالة منها :

« تعفينني على فكرة اللحاق بك ساعة تتركين هذا العالم الأرضي ؟ ... لكأنك تعفين رجلا مات مختنقاً إذا فقد هواءه ! ... فيم المقام على الأرض بعدك ؟ ... وكيف أستطيع ... ثقي يا عزيزتي أن السماء قد ربطت روحك بروحي ... وأنت لحظة تصعدين أصعد ! ... » .

وتجري الرسائل هذا المجري ، وفي ملفي منها رزمة ضخمة ... فقد كان — كما ذكر الشهود — يكثر الكتابة في أوقات فراغه ، ويلمحون على وجهه علامات الاهتمام وأمارات الانفعال ... لقد كان يكتب إليها خطاباً كل يوم ...

وساءت حالها أخيراً ... ودنا منها الموت ... وكان هو في عمله بالإسكندرية ... فلما دخلت في الاحتضار ... ورددت اسمه على شفيتها ... بعث أهلها إليه ببرقية يسألونه الإسراع بالحضور ، فهى في النفس الأخير ...

وصلت إليه البرقية وهو خارج من أحد فصول الدراسة فقرأها وامتقع لونه ، وخرس لسانه ... ومضى إلى حجرة المدرسين ، فطرح كتابه ودفاته ... واستوثق من وجود مسدسه ، فقد كان أعد العدة لأمره ، وتوقع ختام مأساته ... وخشى الوصول إليها

بعد أن تلفظ الروح ... فآثر السفر في الطائرة ... كل ذلك شهد به إخوانه المدرسون ، وأورده النائب العام ... وهذا بخلافه صحيح ...

ركب المتهم الطائرة ... ولم يكن فيها غيره وغير مسافر آخر لم يلق إليه بالا ... وارتفعت الطائرة في الفضاء ... وحلقت وحلق معها فكر ذلك الذهاب إلى الموت ... أيدركها قبل فوات الأوان ؟ ... لو أسرع الطائرة قليلا ! ... لكن ما بالها قد سمرت في الجو ؟ ... لو كان ألف جناح لما سبقت صوابه الطائر ولا قلبه المتلهف ... وفجأة حدث أمر عجيب ... سمع صوتها جلياً يلفظ اسمه ... فأحس رجفة في بدنه ... ثم شعر بعينيه تريان شيئاً من مادة لا علاقة لها بالأرض شيئاً مراً كالشعاع الخاطف مخترقاً الطائرة ، مصعداً في السماء ... في تلك اللحظة أيقن أنها أسلمت الروح ... وكان هذا صحيحاً ، فقد روى لى أهلها أنها صاحت باسمه في اللحظة الأخيرة — وما أشك في أنه سمع الصوت في الطائرة في عين اللحظة ، وما أشك في أن الشاب قد تبدل حاله ، وهبط عليه سلام ، وأحس هو نفسه أنه من أهل الأبدية ... وأنه لا حاجة به إلى استئناف السفر ... فما شأنه بجثة هامدة فوق سرير ...

إن روحها قد مرت به الآن ، كأنها تدعوه أن يلحق بها في الحال ... وأخرج الشاب مسدسه ، وصوبه إلى رأسه وأطلق ... وهنا تدخل القدر ... وهز الطائرة هزة عنيفة فانحرف مجرى الرصاصة عن رأس المتهم إلى صدر المسافر الآخر الجالس خلف مقعده ...

ذعر المتهم في أول الأمر ، ونسى أمره قليلاً ... وبادر إلى المجنى عليه يسعفه ... ولكن ضابط اللاسلكي شعر بالحركة ... فنهض من مكانه وهرع إلى المصاب الخطير الشأن ... ورأى المسدس في يد المتهم ... فلم يبق عنده ذرة من شك ... فانتزع آلة الجريمة من يده ووضعها تحت الحفظ وفطن المتهم إلى الجريمة التي تلصق به ، وفكر لحظة فوجد طريقها مؤدياً إلى ما كان يروم ... وأن الاعتراف بالقتل العمد يضمن له الموت الذي يبتغيه ...

يا حضرات القضاة ... هذه وثائقي في يدي ، وليفتح النائب العام باب التحقيق من جديد ليتضح له أن هذا المتهم قد ضلله ، وأنه يضع في هذا القفص قلباً مجروحاً ، كل أمله الآن أن يدرك قرينته في السماء ! ... »

وجلس المحامي بهدوء ... تاركاً القضاة والنائب والحضور غارقين في شبه ذهول ... ولبت الصمت معرّشاً على القاعة ...

— ١٧٦ —

إلى أن سمع فيها نشيج خافت ... فالتفت القضاة فإذا هم يرون
المتهم مطرقاً ... وهو يحاول جاهداً أن يتجلد ويكتم ما به ...
وغالب نفسه إلى أن غلبته ، وخانه هذوؤه الذى كان مثار
العجب ، وضاح فى قاعة الجلسة بصوت متهدج :

— هذا المحامى كذاب ... مختلق ... كل ما قاله كذب
واختلاق ... أنا القاتل ... لقد قتلت عن عمد ... قتلت
عمداً ... اقتلوني ... اقتلوني ! ...
وأجهش بالبكاء ...

وسالت عبراته على صفحة خده كأنها تسطر حيثيات
الحكم ...

ميلاد فكرة ! ..

- ما هذا الذى يهز جدران رأسى ؟ ...
— فكرة ...
— وما تريدین ؟ ...
— الخروج
— الآن ؟ ... فى جوف هذا الليل ؟ ... والناس نيام ،
والنعاس يغلق منى هذه الأجفان !؟ ...
— نعم ... الآن ... إذا لم أخرج الآن فلن أخرج أبداً ...
— ألا ترين أنى أشاءب ؟ ... وأنى لا أكاد أتماسك !؟ ...
أولا تستطيعين انتظاراً حتى الصباح !؟ ...
— لا أستطيع انتظاراً ... الآن يجب أن أخرج ...
— ولماذا اخترتِ لى هذا الوقت الذى أغرق فيه نوماً ؟ ...
— لست أنا التى تختار ، لقد تكونت فى رأسك كما يتكون
الجنين فى بطن أمه ، ونضجت للنزول ...
— وكيف لم أشعر بك من قبل !؟ ... كل ما شعرت به أن
(أرنى الله)

— ١٧٨ —

رأسى فارغ كالقربة المثقوبة ...
— إنى أتكون على غير وعى منك ... منذ أمد بعيد ...
والآن قد تكونت ، وحن موعد خروجى ...
— خروجك إلى أين ؟ ...
— إلى الدنيا ... إلى الورق ... انهض أيها الخامل وضعنى
على الورق ، وانشرنى على الملاء ...
— يا لك من مغرورة ! ... وماذا يجرى للدنيا من خروج
مثلك الآن ؟ ...
— من يدري ؟ ... ربما تغير وجهها ... وربما ازداد
جمالها ... وربما انقلب أمرها أخطر انقلاب ! ...
— بك أنت ؟ ...
— نعم ... بى أنا ... وليست هذه أول مرة أفعل ذلك ...
فهذه الأهرام التى تبصرها من نافذتك إنما هى فكرة ... وهذه
الكهرباء التى تضىء حجرتك كانت فكرة ... وهذا الراديو
الذى يسمعك صوت العالم هو فكرة ... وهذه النهضات التى
ظهرت فى الأمم بدأت فكرة ... وهذه الأديان التى سمت
بالبشر برقت فكرة ... وهذا الفن الذى نعمت به الإنسانية لمع
فكرة ...

بل كل حضارة الآدميين على الأرض وليدة فكرة ... وكل الفرق بين نوع الإنسان وفصائل الحيوان ، أن الفرد من الإنسان يلد الفكرة ، والفرد من الحيوان لا يلد الفكرة ... فقم واطرح عنك الكسل ، وافرح ؛ لأن في رأسك فكرة ...

— وهل أنا وحدي الذي في رأسه فكرة ! ... أليست هنالك فكرة في كل رأس من رؤوس هؤلاء الملايين من الناس ؟ ...
— نعم ... ولكن قليلاً جداً من بينهم من تخرج له فكرة ...
— إذن قيمتك أن تخرجي ...

— نعم ... وأعيش ... وهذا أقدر أحداث الأرض ... وإذا كان لك إلمام بالحساب فتناول قلماً وورقاً وأنت ترى العجب ... إن على الأرض أكثر من ألف مليون شخص ... فإذا فرضت أن مليوناً واحداً فقط ينتج في كل قرن من الزمان فكرة ، لكان في العالم مليون فكرة حية في كل مائة سنة ... وهذا لا يحدث أبداً ... فإن القرن الذي ينتج عشر فكريات تعيش وتنفع الناس ، يسمونه عصر النهضة ، أو العهد الذهبي للبشرية ! ...
— لا يكفي إذن أن تخرجي من رأسي ...

— لا ... ليس هذا بكاف ... إن الأفكار التي تخرج كل يوم من رؤوس المفكرين والشعراء والفنانين والعلماء كثيرة

العدد ... واليوم — على الخصوص — قد تضعف
محصولها ... لأن صناعة التفكير قد انقطع لها فى العالم عدد
وافر من محترفى الفكر ... يملأون الصحف والكتب أفكاراً ،
يزعمون كلهم أنها كونت من زبدة الخلود ... وهى فى أغلبها
لم تصنع إلا من شىء كزبدة الفطائر التى تذوب فى الأفواه مع
قدح الشاى كل صباح ! ...

— كنت أحسب المهم مجرد خروجك من الرأس
— المهم هو حياتى بعد ذلك ...
— ربما كان المهم أيضاً ... ليس مجرد حياتك ؛ بل طول
هذه الحياة ...

— صدقت ! ... فقد أحيا فقط سنة واحدة ، كما تحيا
البدعة أو « الموضة » ... وهذا لى أسخف أنواع الحياة ! ...
— كم سنة تريد أن تعيش إذا خرجت من رأسى ؟ ...
— أكثر منك أعواماً على كل حال ... أضعاف حياتك على
الأقل ... إنى أتمنى أن أراك فى التراب وقد نخر عظمك ، وأنا
فى تمام صحتى واكتمال روعتى ! ...
— لعنة الله عليك وعلى تمنياتك ! ...
— أو لا يسرك أن أعيش بعدك ؟ ...

— ١٨١ —

- بل يسرنى أن أعيش أنا بعدك ولو ساعة ١ ...
- وماذا تصنع بعمرى وقد ماتت أفكارى ؟ ... وما طعم حياة الأب الذى فقد أبناءه ، وعاش إلى آخر دهره وحيداً ١؟ ...
- هذا حقاً مؤلم ... وتلك مصيبة من ينجب الأبناء ، وما دام فى إمكانى أن أمنع ميلادك ... فلماذا لا أفعل ؟ ... إن فى خروجك متاعب ...
- وفى خروجى أيضاً مزايا ١
- ما هى هذه المزايا ؟ ...
- أن ترانى مخلوقاً تام التكوين ، يشبهك ويذكرك بعيوبك . ويعيش أمامك مرآة لطباعك ، وخزانة لصفاتك وفضائلك ، واستمراراً لوجودك ، وقد يعجب الناس وينفعهم فيرضى غرورك ...
- حقاً .. غرورنا وحده هو الذى يسمح لمثلك بالخروج ...
- ولهذا يحسن لى الانتفاع بهذه الطبيعة فيكم ... هيا أخرجنى ١ ...
- ولكنك لم تخبرينى ما مصلحتك أنت فى الخروج ١؟ ...

— ١٨٢ —

— ما أحق سؤالك ! ... أتستطيع أن تسأل خلية عن
مصلحتها في الحياة ؟! ... إن الرغبة في الحياة ملتصقة بذات
وجودنا ! ...

— أنت إذن موجودة الآن في رأسي ؟ ...
— طبعاً ... وهأنذا أصبح بك وألح طالبة الخروج إلى
الحياة ...

— انتظري قليلاً ، حتى أحضر قلماً وورقاً ...

— حذار أن تبطئي ...

— وما الضرر ؟ ...

— أحس أنفاسي توشك أن تخمد ، ونوري يوشك أن
يخبو ... لقد ناقشتني طويلاً واستنفدت قواي ، ونهكتني
وأتعبتني قبل أن أولد ...

— يا لسوء الحظ ! ... القلم ... نسيت موضعه ... أما
الورق فلا يوجد الساعة غير هذه الورقة على المائدة ... وهي
ملفوفة بها الفطائر التي أحضرتها لفطوري ... أما وقد أيقظتني من
نومي اللذيذ ، فلا أقل من أن أبدأ بالطعام ... فلا نفع لرأس ممتليء
إذا كانت المعدة خالية ... 'تجملني بالصبر إذن ، وانتظري حتى
نفرغ من أمر الفم ، ثم نعننى بأمر العقل ، ونقضى

أنى سأسرع ولا أجعلك تنتظرين طويلا ، وأثناء المضغ نبحث لك
عن القلم الضائع ، وهأنذا أبحث ... وها هو ذا قلم فوق الخوان .
لا بأس الآن من إخراجك أيتها الفكرة ... هلمى ...
تكلمى ... اخرجى ... يا للعجب ! ... مالك ؟ ... ما هذا
الصمت ؟ ... ما هذا السكوت ؟ ... أين أنت ؟ ... أين
ثرثرتك التى أيقظتنى ؟ ... أيتها الفكرة ؟ ... انطقى ! ...
لاتوقفى اللقمة فى حلقى ! ... أين أنت ؟ ... هل ذهبت ؟ ...
هل مت ؟ ... وأسفاه ! ... لقد مت قبل أن تولدى ...
نعم ، ما من شك فى أنها ماتت فى رأسى قبل أن تولد ... أترانى
أبطأت عليها ؟ ... أتراه ذنبى أم ذنبا ... ما علينا ... فلتذهب
هى إلى أعماق جهنم ! ... وأنا إلى نهاية الأكل ثم إلى فراش
النوم ! ... ليست هذه أول مرة تصنع بى ما صنعت ، ولست أنا
أول من يحدث له هذا ... إنما هى فكرة تولد وتموت ... أو تموت
ولا تولد ، كغيرها من ملايين الأفكار التى تهز رؤوس الملايين من
الناس ، ملايين المرات فى ملايين اللحظات ! ...

وجه الحقيقة

كيف عرفت أنى أقطن هذا النزل ؟ ...
قلتها وأنا أقود صديقى وناشر كتبى إلى حجرتى ، وقد
سمعت صوته بالباب يسأل صاحبة النزل عنى ويذكر لها أوصافى قبل
أن يذكر اسمى ، كأنما قدر فى نفسه أنى تسميت فى هذا البيت
باسم مستعار ...

ولم يكد يدخل الحجرة حتى أرسل نظرات مستطلعة إلى
كل شىء حوله ، وأبصر حقائقى الثلاث على ظهر خزانة الملابس
وبعض الكتب على رأس الفراش ، ونظر إلى « الجراموفون »
المفتوح فوق مائدة صغيرة ، والقلم الرصاص الملقى بين أوراق
منثورة على مكتب فى أحد الأركان ، وإناء من البللور الأزرق
فيه بضع زهرات ، فوقف لحظة يهز رأسه ، ثم جلس على مقعد
قريب وهو يقول :

— هذا أنت حقيقة ... تلك بعينها حياتك غير المستقرة ...
أخبرنى إلى متى التنقل من نزل إلى نزل ، ومن فندق إلى فندق

وإخفاء مقرك عن الجميع ، حتى عنى ؟ ... لقد قابلنى اليوم أحد الناس وسألنى عن بيتك فلما أظهرت جهلى صاح دهشاً :
— « رجل يشار إليه بالبنان ، ولا يعرف له حتى الآن عنوان ... »

— وأنت ... كيف عرفت عنوانى ؟ ...
— تتبعت خطاك ذات ليلة ... أرجو أن تغتفر لى هذا الفضول ... إنما أردت ...
والتفت إلى المكتب والأوراق ثم أدار وجهه شطر باب مغلق
يفصل بينى وبين الحجرة المجاورة وابتسم ، وقال وهو يتنسم شيئاً بمنخاره الطويل :

— إنى أشم هنا رائحة قصة تكتب ؟! ...
— هنا قصة حقاً ... ولكنها لم تكتب ...
ونظرت على الرغم منى إلى باب الحجرة المجاورة
وتنفست ... ولحظنى الناشر ، فأسرع صائحاً فى لهجته
الحماسية المسرفة . وإشارته التمثيلية التى كلها تهويل : إنك قد
كتبتها ... إنا قد ظفرنا بكتاب العام ! ... إنا قد نشرنا كتاب
العام ...

فوضعت إصبعى على شفتى أطلب إليه الصمت ، وأرهفت

سمعى ناحية الباب الفاصل ، وإذا ضحكة رقيقة قد بلغت
مسامعنا ، فنظرت إلى صاحبي فإذا على وجهه إشراقة ؛ ومرت
لحظة ولم نسمع شيئاً ... فالتفت صديقى إلى كالمأخوذ :

— صدقت ! ...

ثم أشار برأسه الأصلع وشعيراته القائمة فى وسطه كأنه رأس
هدهد ، إلى ذلك الباب ، وسأل فى همسة :

— من هى ؟ ...

فقلت فى غير وعى :

— ماذا يهم ؟ ...

— حقاً .. ما دامت تستطيع أن توحى إلينا ...

— آه أيها الناشر ، بل أيها الخاسر ! ... أنت الذى يحيل
أجمل عواطفنا الإنسانية إلى هراء يباع ويشترى ... نعم ... لو
علمت أن كل ما أكتب لك وأنشر عندك منذ شهور ، إنما خرج
من خصاص هذا الباب ! ... لقد كذبت عليك يوم قلت لك إن
« موزار » وحده هو الذى يرعى الآن فنى بقيثارته السحرية
الصفافية ... ضحكاتها الصفافية هى أيضاً ... تلك الطفلة التى لم
تجاوز العشرين ... عهدى بقلبي دائماً لا يعلق إلا من تقاربني أو
تكبرني فى العمر ... لأول مرة فى حياتي أهتم لأمر طفلة

تصغرنى بكل هذه الأعوام ... أتلک علامة الهرم ؟ .
 والتفت إلى مرآة خزانة الملابس ، ونظرت إلى تلك التجاعيد
 التى برزت سطورها على صفحات الوجه ، كأنها إنذار رسمى
 من الزمن ... ومضيت :
 — لا ... لن أكتب شيئاً ... لقد سئمت هذه الحياة ...
 أريد مرة واحدة أن أحب للحب ...

فصاح بى :
 — تحب للحب ؟! ... وأنا أغلق حانوتى ، وأبيع مطابعى ،
 وأوقف مجلتى ! ...

— اطمئن ... لن يحدث ذلك أبداً ... وأأسفاه ... لقد
 خرج أمرى من يدى منذ أمد طويل ... إنى لم أخلق
 « مستهلكا » للسعادة بالمعنى الاقتصادى للكلمة ... إنما أنا
 « منتج » فقط لهذا الصنف فى السوق ...

— طباخ « السمس » لا يذوقه ...
 — إن المأساة الكبرى فى حياتى اليوم أيها الصديق ، هى أنى
 لم أعد أفرق بين العالم الخارجى الحقيقى وبين ذلك العالم
 الوهمى الذى أصنعه بالمداد والورق وأدفع به إليك وإلى غيرك
 من تجار « الأحلام » وسماسرة « الأوهام » ! ... إنى لم أتبين

ذلك إلا اليوم ... إنى منذ سمعت من خلال هذا الباب صوت تلك « العصفورة ، الجميلة التى يقولون لى هنا إنها « امرأة » وهديل ضحكاتها الصغيرة ، وأنفاسها الخفية وسعالها اللطيف ، وأنا لا أنفك أقيم لها فى رأسى تماثيل من ذهب لا « لزبائنى » ولكن لنفسى ... وهنا المصيبة ... منذ شهور وأنا أدير « الجراموفون » لها هى وأوقن أنها لا بد مأخوذة مثلى « بموزار » بل إنى قد سمحت لنفسى أحياناً أن أتصور أنها تتساءل : « من هذا الجار ؟ ... » ولقد كان بابى مفتوحاً ذات يوم وكنت فى ناحية من الحجرة فأبصرتها تمر فى الدهليز ، فلما اقتربت من بابى رفعت عينيها تنظر نظرة المستطلع ... عفواً ... كلمة « المستطلع » هذه لاتثق بصحتها كثيراً ، فهى من تقدير ذلك الرأس الذى يخلط الآن الصدق بالكذب ...

على أنى لم ألبث أن فتلت — كعادتى — من شعاع هذه النظرة العابرة سبائك من الأحلام ... كل ذلك دون أن أكلمها أو أعترض سبيلها ... أهو خوف من مواجهة الحقيقة ؟ ... أم استغناء عنها بعالمى الذى فى رأسى ؟ ... لست أدرى ! ... إلا أنى جعلت أرقب حياتها ... ووجدت أحياناً ما كاد

يخيب ظنى ... فهى امرأة متزوجة ، وقد رأيت زوجها فتى من أجمل الفتيان ، وهى مثال للكسل والتراخى والفراغ ، فهى فى نظرى كأنها « دوقة » لا تستيقظ فى الصباح إلا قبيل الظهر ، ولا تنام إلا فى الثانية بعد منتصف الليل ... حياتها تسير على وتيرة واحدة ... نهوض متأخر ، ووقت ينفق فى الزينة ومشاغل نسوية تافهة ثم غداء تتناوله بمفردها ... لماذا بمفردها ؟ ... هذا ما عجبت له أول الأمر ...

ثم يأتى زوجها من عمله عند النصر مع بعض أصدقائه فيلعبون الورق أو يتجادلون فيما لا طائل تحته حتى المساء فيخرجون جميعاً ولا تعود الزوجة مع زوجها إلا إذا انتصف الليل ...

ولقد أدهشنى فى الليل أمر : هو الصمت العميق فى الحجرة عقب عودة المرأة إلا من صوت كتاب تقلب صفحاته من حين إلى حين ... وقد كنت أقوم أحياناً نصف قيام فى فراشى فأبصر نور حجرتها المجاورة ينفذ إلى من خصاص الباب ... ولا يسكت حفيف الكتاب وينطفئ النور إلا فى الهزيع الأخير من الليل . وقد أيقنت من ذلك أن الرجل يقرأ كثيراً ، وأن امرأته لا شك قد نامت منذ ساعات وتركت مستيقظاً تحت « الأباجور » غير أنى أنكرت كيف أنى لم أسمع مرة واحدة صوت كلام ، كأنما الغرفة لا تضم

غير شخص واحد ... ولا أكتمك أنى وجدت وما زلت أجد متعة وسروراً فى تتبع أحوالها ... ولعل هذا يفسر لك سر انزوائى فى النزول ، لا أخرج إلا قليلاً ...

إنى أنظر الآن وهى تجرى فيه حياتها فلا أسأم ، بل النهر الضيق الصغير الذى تجرى فيه حياتها فلا أسأم ، بل إنى لأرى أيامى الآن عريضة عميقة زاخرة بأحداث وتفاصيل ومشاعر ومناظر ، قد لا يكون لها وجود إلا فى رأسى ، ومع ذلك ... ما الضرر ؟ ... ولقد أردت يوماً أن أعرف عنها أكثر من ذلك بوسائل أخرى ، فقلت لصاحبة النزول :

« إنك حقاً يا سيدتى تقدمين لبطنى أطيب الطعام ، وتعددين غرفتى أحسن إعداد ، ولا ينقصك إلا أن تقدمى كذلك مادة الغذاء لقصصى وكتبى فتؤدى لى وللأدب أجل خدمة » ...

فحملت العجوز فى وجهى وكأنها لم تفهم ... فأبنت لها عن قصدى ، وسألته أن تخبرنى بأخبار القاطنين معى ، علنى أجد فيها بغيتى فلم يبد منها حماس لهذه المهمة وأدركت أن تقديمها إلى طبقاً جيداً من « البفتيك » هو عندها أجدى وأجل من تقديم « موضوع » كتاب خالد !! ... وعندئذ فهمت أن تلك التيجان التى يضعها على رؤوسنا أمثالك من الناشرين والمعجبين ؛

إنما هي شيء لا يبهر غيرنا نحن وغير أولئك الغافلين الذين استطعنا أن نخدر أحلامهم بدخان الكلام العبق الكثيف ...

ولكنها مع ذلك تحدثت إلى ... وعلمت منها أن تلك الزوجة الصغيرة قد اقترنت منذ عامين بهذا الشاب الجميل دون أن يعلم بذلك أمه المريضة بالقلب ... وأن أمه كانت تريده لإحدى قريباتها الموسرات ... وهو يخشى على أمه التي يجلبها أثر الصدمة لو علمت بهذا الزواج ... فهو من أجل ذلك قد وضع زوجته في هذا النزل وهو ما يزال يقطن عند والدته ، يؤاكلها في الغذاء كعادته ويبيت عندها دائماً كأن لم يحدث قط شيء ... عجباً !! ... إذن الصغيرة هي التي تقرأ وحدها في الليل !! ... ولقد صادفت أنا حقيقة الزوج عائداً مع زوجته ذات ليلة ... فما إن أوصلها إلى الباب حتى تركها وعاد إلى بيت والدته .. إن مظهر هذا الزوج عجيب .. إن هذا الفتى أقرب في تصرفاته إلى الخليل مع خليلته ومع ذلك فإن تلك الزوجة تحبه حباً عظيماً ، وأنها تتألم ، وقد بنت صاحبة النزل بعض همها ... إن هذا الزواج الذي بدأ بالحب قد انتهى اليوم من ناحية الفتى إلى شيء من الفتور ، وهي تخشى أن يكون هناؤها قد انقضى وأن يكون شأنها شأن الوردة التي لا تعيش أكثر من

يوم ١ ...

ولقد جاءتنى صاحبة النزل ذات مساء وأنا أدير
« الجرامونون » وحملت إلى « اسطوانة » قالت إنها للسيدة
المجاورة وهمست فى أذنى إن السيدة تحب سماعها لأنها تذكرها بحال
كحالتها ... فقلبت « الأسطوانة » فى يدى فإذا هى أنشودة المغنية
الباريسية « داميا » مطلعها :

« فقدت شبابى بفقد حبيبى »

فلم أكنم خيبة أملى لتفاهة هذه الأغنية إلى جانب تلك الكنوز
من الموسيقى العليا التى تسمع من حجرتى ... ولكنى ومع ذلك
أطلقتها من فرنوغرافى « مرة واحدة من أجلها ، ولم أجسر على
إعادة الكرة ... إنى ما زلت أحتفظ بأسطوانتها ... ها هى ذى فى
الجزانة الصغيرة ، غير أنى لا أحب أن أديرها لأنى لا أرى من
الدوق أن أذكرها كثيراً وهى فى مقتبل الشباب بهذا المصير الخفيف
الذى تخشاه ، لم أجروء على ذلك وقد تقول إن هذه الأغنية تخيفنى
أنا وتخزنى لأنها تذكرنى أنا أيضاً بحالى ... وهى فى حقيقة الأمر
لا تنطبق إلا على وربما كان فى هذا شئ من الحقيقة ...

قد تسألنى بعد ذلك أيها الصديق : ما موقفى الآن بين كل

هذا ؟ ... لا أستطيع أن أجيبك ! ... كل ما أعرف أن هذه المرأة الصغيرة لها على اليوم وعلى عملى تأثير واضح ، وأن الصفاء الذى يجرى بين السطور التى تنشر لى هذه الأيام إنما ينبع من ضحكاتها الصغيرة الرقيقة التى تشبه ضحك الأطفال ... إلى أفكر فى أمرها كثيراً ، ويخيل إلى أنها على الرغم من تفاهة حياتها وسخف المتصلين بها لا بد أن يكون فى نفسها جانب ذو قيمة ... أتراها تعنى وتصغى إلى كل تلك الموسيقى الجديدة التى تنطلق من حجرى ؟ ... إن ما يخيب أملى فيها أنها لا تجلس منفردة ساعة واحدة ... فإن لزوجها أصدقاء من حثالة الناس لا ينقطع لهم وابل طول النهار يحيطون بها كما يحيط الذباب بشىء حلو ، وينجذبون إليها كما ينجذب الإنسان إلى كل شىء جميل فلا يتركونها لحظة منفردة سواء حضر زوجها أو غاب وليس عندهم — كما قلت — إلا لعب الورق والكلام فى مراقص الليل و « الكاباريات » التى يقودون إليها هذه الفتاة كل ليلة ، فلا تعود كما ذكرت لك إلا بعد منتصف الليل ...

أمر واحد ينقذ هذه المرأة فى نظرى ، هو مطالعتها الليلية الطويلة ، فهى عندى كما مقدس يطهر كل شخصيتها الفارغة ، ويغسل كل ذلك السخف الذى ييدر فى حياتها بالنهار ... هذا (أرنى الله)

أيضاً أخشى فيه مواجهة الحقيقة ، وأخاف أن أعلم يوماً أن هذه القراءات الطويلة إنما هى فى « ميشيل زيفاكسو » و « أرسين لويين » وأنواع أخرى قد لا أعرفها من حثالة الكتب ...

إني أشفق على هذه الطفلة من أشياء كثيرة ، وأعرف تلك الأخطار التى تهدد الزوجة المهملة ، ولقد سمعت بأذى حواراً دار بينها وبين صديق لزوجها انفرد بها يوماً وقدم إليها مبلغاً من المال وظن أنها فى حاجة إليه ... فصاحت به : « إنك تنسى الاحترام الواجب لى ! ... » ولقد أعجبني عندئذ موقفها ، ورأيت منها نفساً تجاهد جهاد الأبطال لتنجو من مزلق الطريق الذى تدفعها إليه الظروف ، لعلك تعجب من خوفى عليها هذا الخوف ... نعم لكم أتمنى لو أجعل من هذه الصغيرة إنساناً ذا قيمة ، وأن أوجه تيار حياتها إلى وجهة سامية ، وأن يستكشف فيها زوجها يوماً كنزاً لا يقوم بمال ، لو أن مثله يستطيع أن يستكشف شيئاً ، إن لم يفعل فعلها هى التى تفتح عينيه وتنشئه نشأة أخرى ... تلك مشاعرى نحوها ... إن عواطفنا لا يمكن أن تكون إلا جميلة نبيلة نحو من يوحى إلينا بشيء جميل نبيل ... لقد فكرت كيف أستطيع أن أهذب هذه الصغيرة من حيث لا تدري ... ووددت لو

أستطيع أن أكتب إليها ... فقد تنفع كتاباتي هذه النفس
المسكينة ... ولعل مخاطبتي إياها تخرج من نفسى ثروة قد تنفعنى
وتنفعك بما لم تكن تحلم به يوماً ... ولقد سطرت لها فعلاً هذه
الرسالة، أقرأها لك ؟ ... استمع : سيدتى ، أيمكننى أن أسألك
معروفاً ؟ ... اسمح لى أن أكتب إليك من حين إلى حين ... لا
تردى على رسائلى ... أعيدها إلى فقط بعد برهة من الزمن ...
رسائلى هذه وحدها هى التى قد يكون لها عندى كل القيمة ...
لماذا اخترتك بين مئات لهذه المهمة الغريبة ... أولاً : لست أنا
الذى أختار تلك التى تستطيع أن تسيل نفسى على الورق ،
ولا بد لنفسى أن تسيل لأن بضاعتى التى أتاخر فيها ، هى
إحساسى ... إن دموعى وضحكائى ومصائبى تدر أحياناً على
الذهب وربما شيئاً من المجد ... هكذا خلق ذلك الكائن العجيب
اللعين الذى يسمونه : الفنان ... أما شخصك وماله عندى من
احترام فلا دخل له فى الموضوع بحال ... » لم أرسل إليها هذا
الكلام لحسن الحظ ، فقد قلت فى نفسى بعد ذلك : ماذا يعنى
هذه المرأة من أمر الذهب الذى سأجنيه ، والمجد الذى قد تضحك
من مجرد اسمه ؟ ... ومن يضمن لى أنها تحمل خطاى المعنى الذى
أرد به أنا ؟ ... مرة أخرى شعرت أنى لم أعد أمير الحدود الفاصلة

بين عالم الحقيقة وعالم الخيال ... إن هؤلاء الأشخاص الحقيقيين الذين يعيشون إلى جوارى راضين بحياتهم التي أسميها تافهة، وهم ولا شك هازئون بي إذا علموا أني أريد أن أغير مجرى أيامهم ... إنهم ليسوا مخلوقات تتحرك على الورق طبقاً لمشيئتي ، وتتصرف تبعاً لمنطقتي ... ولكنهم ناس لا سبيل لي على حياتهم ... ينبغي لي أن أترك هؤلاء الناس وشأنهم ... ألا ترى معي أيها الصديق أنه ينبغي لي أن أترك هؤلاء الناس وشأنهم ؟ ...

فأفاق صاحبي من تأثير ذلك الحديث الطويل وقال :

— كيف تتركهم وشأنهم والقصة لم تتم ؟ ...

— لا أريد أن تتم ... يجب أن تقف عند هذا الحد ...

— نحن لم نعرف بعد عن هذه المرأة إلا ما صورته لك

مخيلتك ...

— يكفي هذا ... إنها لمخاطرة أن نعرف صورتها الحقيقية ...

مخاطرة باهظة الثمن فالزم الصمت ... ولا تسكت تلك القيثارة التي تسيل على أنغامها نفسي . فإن الطمع قد يذهب عنك حتى تلك السطور التي كنت تنالها مني ...

وفي اليوم التالي ، في نفس الساعة ، عاد إلى صديقي الناشر

وجلس أمامي في نفس المجلس من حجرتي ، وأطرق قليلاً ثم قال

لى بصوت خافت :

— هل من جديد ؟ ...

— وانبعثت من عينه نظرة إلى الباب الفاصل ، فبادرت قائلاً :

— إنها ليست هنا ... لقد خرجت منذ قليل فى صحبة تلك

الزمرة ...

فاطمأن فى كرسيه وأرسل صوته على طبيعته طالباً إلى أن

أمضى فى الحديث عنها ...

— ماذا تريد أن تعلم منى أكثر مما علمت ؟ ... إن حياتى الآن

جميلة على الرغم من كل شيء ... إنك لترى وتلاحظ أن إنتاجى

غزيز وخيالى متقد ، ولا ينبغي لى أن أغير هذه الحياة الآن ...

إنى على كل حال غير قدير على ذلك على الرغم من ... ولكنى

مع ذلك ...

آه أيها الصديق ! ... يجب أن أفضى إليك بشيء خطير ...

لقد كذبت عليك أمس إذ قلت لك إنى لم أكلمها بعد ...

الحقيقة أنى خاطبتها ...

— خاطبتها ؟ ...

— منذ يومين ... دخلت المطبخ أطلب فنجاناً من القهوة

فرايتها فى « روب دى شامبر » يا بانى إلى جانب الحوض تضع أزاراً

صغيرة فى إناء ، وتصب عليها ماء من الصنبور ، وتحادث صاحبة
 النزى العجوز بالإيطالية ، فانحنيت برأسى انحناء خفيفة محيياً ...
 ورأيت أن أنتهز الفرصة للكلام ، فبادرت أسأل فى دهشة :
 سيدتى ... أتعرفان الإيطالية ؟ » فقالت العجوز : « أتكلمها
 فقط ، ولا أكتبها ولا أقرأها ، أما السيدة الصغيرة فتعرفها تمام
 المعرفة ، وعندئذ أجابت الصغيرة : « نعم ... إلى تعلمتها فى
 المدرسة وأعرفها تمام المعرفة » ... هنا لست أدرى ماذا دفعنى أن
 أقول للصغيرة : « أتأذنين لى فى أن أكلفك ترجمة رسالة صغيرة
 أريد أن أبعث بها إلى موسيقى إيطالى كان قد وضع ألحاناً لرواية
 لى ؟ » فقالت للفور فى أدب : « بكل سرور ... اكتب الرسالة
 بالفرنسية وأنا أنقلها إلى الإيطالية » ... ولم أستطع أن أحادثها
 أكثر من ذلك ، فقد حملت آيتها وحيث برأسها تحية خفيفة ،
 كلها تحفظ وانصرفت إلى حجرتها ... وتركتنى فى مكانى
 كالتمثال » وأفقت من دهشتى وعدت فى الحال إلى حجرتى ، وقد
 نسيت أن أطلب القهوة التى كنت قد ذهبت إلى المطبخ من
 أجلها ... ولكن أى قهوة ؟ ... لقد أحسست أنى ظفرت بغميمة
 لا تقدر بمال ... إن بينى وبينها اليوم صلة ، لا أقول وثيقة ،
 ولكنها على أى حال تبشر بخير ... فهى ستقوم لى بخدمة ... لقد

وعدت ، وعندئذ يجب أن أقابل الجميل بالجميل ... وجعلت أفكر فيما ينبغي أن أقدم إليها أو أصنع من أجلها شكراً على خدمتها ... أهدي إليها كتاباً من كتبي ... أو أشتري لها تحفة صغيرة تذكراً لما قامت به من أجلى ، أو أن أدعوها ... كلا ، هذا كثير ... ولم لا أدعوها إلى عشاء ساهر مع زوجها وصاحبة المنزل ؟ ... كل شيء عندئذ جائز ، وإن المجال متسع أمامي وليس لي إلا أن أختار ... المهم هو أنها قد بدأت بتقديم خدمة لي وجلست من فوري إلى مكتبي أكتب الرسالة بالفرنسية ولكن أى رسالة ؟ ... إن هذا الموسيقى الموهوم ليس إيطالياً ... الواقع أن هناك موسيقياً مصرياً أرسل إلى عدة صفحات من نوتة موسيقية خاصة برواية لي لأطلع عليها وأبدى رأياً فيها ... ولكن ماذا يمنع من افتراض أن هذا الرجل إيطالي لا يعرف غير الإيطالية ؟ ... فلاكتبن الرسالة وأدفعها إلى الصغيرة لترجمتها كما اتفقنا ... وتناولت القلم الرصاص وخططت على الورق خطاباً بسيطاً برىء اللهجة ... لست أنكر أن عواطفني تركت بعض الأثر بين السطور ، ولكن ذلك شيء لا يلمحه أحد غيري ... إن مجرد تصوّر أن الصغيرة ستقرأ هذا الكلام ، جعل نفسي تخرج عن طوعي وتدخل متلصصة في هيئة عبارة أو عبارتين تسيلان رقة

— ٢٠٠ —

وعذوبة ... إني لن أريك هذا الخطاب الآن ... ومع ذلك
انتظر ... لم لأقروء عليك الساعة ؟ ... إنه كما قلت لك خطاب
بريء ، وليست لى الجرأة أن أكتب أكثر من ذلك ... وليس فيما
أرى من حسن اللباقة وحسن التصرف أن أكتب غير هذا ... ها
هو ذا ... اسمع :

عزيزى المايسترو ... وصلنى جزء من الألحان الموسيقية التى
وضعتها لروايتى ... وقد دهشت قليلا إذ وجدت الغناء فيها غناء
على الموسيقى الخالصة ، إن الغناء ليس إلا الصوت الآدمى ، وإن
الصوت الآدمى الجميل ليستطيع أن يسحر الناس بنفسه من غير
حاجة إلى ملحن ... لقد سمعت ضحكات قصيرة لغادة صغيرة لا
تقل فى عذوبتها وفى رققتها عن ضحكات الطفل الإلهى «موزار» فى
قطعة «المينويتو» ولكن الأوركسترا فى التلحين هو الجانب الذى
يشرح ويفسر العمل بأكمله ، وإني لأرى التفسير الموسيقى
الخالص قليل المقدار فى هذه الصفحات التى بعثت بها إلى ، فى
إمكانك مع ذلك أن ترتاب فى صحة حكمى ، إني لست أنكر أن
بعض الأنواع — ولا سيما الأشكال والقوالب — مازالت تفلت
من نطاق إحساسى الموسيقى ، يجب أن يبلغ الإنسان من الثقافة
ذروة هائلة ، وفى سلامة الذوق درجة عالية ، حتى لا يخطئ

القيم الصحيحة في الفن والجمال ، إن الجمال إله لا يكشف قناعه
لكل الناس ... إن رأيك الأخير مع ذلك هو ما سأنزل عنده ...
ولك تحيتي » ...

وطويت هذه الرسالة مصحوبة بالنوتة الموسيقية حتى لا تظن
الجميلة أن الأمر من أساسه مختلق ، ووضعت كل هذا داخل غلاف
كبير من الورق الشفاف وفتحت بابي أنتظر مرورها في الدهليز
أو الردهة فأسلمها ذلك ، وشغلت بعدئذ بعمل وفنوغرافيا أسمع
تارة أنغام « موزار » الراقصة في جو الحجرة وأقول في نفسي
مبتهجا : « إنها الآن ولا شك تسمع خاشعة باسمه » وحسنتي كل
هذه الأفكار في ذلك اليوم للعمل فأمسكت قلمي وغرقت في
سيل وحى غزير ، وملأت صفحات من كتاب جديد أعمل فيه ،
ومقالات مطلوبة للمجلات ... وإذا الساعة التاسعة تدق ، وإذا
الصغيرة قد خرجت من حجرتها بملابس الخروج ، وفي زينة
زادتها جمالا على جمال ... ويمت شطر الباب الخارجى ،
فأسرعت واتجهت إليها بالمظروف قائلا لها : « إن الرسالة داخل
هذا » وشكرتها ... فتناولت منى المظروف وعادت به إلى
حجرتها ، فوضعت فيها وخرجت لسهرتها ، ومكثت أنا في مكانى
من حجرتى طول الهزيع الأول من الليل أكتب وأنتظر أو بتها ،
(أرى الله)

حتى كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ... فعادت في موعدها المتأخر ، وسمعتها تدخل حجرتها ... على أنى لم ألبث أن دهشت وخفقت قلبي سروراً ... ذلك أنى أصغيت في هدوء الليل ، فإذا بى أسمع صوت الغلاف الشفاف وله خشخشة واضحة يفتح في عجلة ولهفة عقب اجتيازها عتبة بابها ، وليس من شك لدى في أن هذا أول ما فعلت عند دخولها حجرتها ، فهى لم تخلع ملابسها ولا معطفها ولا حتى قبعتها ... كأنى بصبرها النافذ لا يريد أن ينتظر ثانية ، وكأنى بها مدفوعة بحب استطلاع غريب ، أو لعل أنا أسرف في الخيال والظن والافتراض. وقولى الآن — كما ذكرت لك — لا يعتمد عليه كثيراً ، فما أبعد الحب عن تصور الحقيقة كما هى ... إن فى رأس كل محب يدا مغرصة تصور الأشياء كما يريد قلبه أن تكون .. على أن الواقع الذى لا غلو فيه هو أنها فضت غلافى وهى بملابس الخروج ، إذ لم تمض أى فترة بين اجتيازها عتبة حجرتها وبين سماعى خشخشة الغلاف ، وأصغيت وأنا معلق الأنفاس ، ومضت لحظة سكون ما شككت فى أنها اللحظة التى استغرقتها مطالعة الرسالة ، وإذا بى أسمع الخشخشة من جديد كأنها الرسالة تدس فى غلافها ، ثم وضع كل هذا فى مكانه ، وسكن الصوت إلا من صوت خطواتها فى الحجرة

وصوت خزانة ملابسها تفتح وتغلق وصوت خلع ملابسها ودخولها فراشها ...

وأرھفت الأذن علنى أسمع ما ينبئنى بعودتها إلى المظروف لتعمل ، لتبدأ فى الترجمة ... فلم أسمع غير حركة تقلب صفحات جريدة أو كتاب ، فعلمت أنها تقرأ فى سريرها تحت « الأباжور » قبل نومها كالمعتاد ... فظللت ساهراً حتى رأيت نورها يطفأ من خصاص الباب الفاصل ، وكانت الثانية بعد منتصف الليل ، ولم يبق لى دافع على السهر ...

فطويت ورقى وأطفأت نورى ونمت ... وفى الصباح استيقظت سعيداً راضياً ، وارتدیت ثيابى وأنا أصفر بسمى وأترنم وأكلم المرأة بصوت خافت ... فهى ما زالت نائمة وأستار نوافذها ما زالت مسدلة ، وخرجت لشأى كعادتى ، ورجعت عند الظهر فى ميعادى ، ولم أكد أدخل غرفتى حتى وقع بصرى على مظهر وفى فوق مكتبى فأسرعت إليه أفحصه ، فإذا كل شىء فيه : الرسالة الفرنسية والنوتة الموسيقية كما كانتا ... وليست هناك ترجمة ، وسمعت العجوز صاحبة النزل صوت أقدامى ، فجاءت إلّى مسرعة تقول : « إن السيدة الصغيرة تعتذر وتأسف لعدم استطاعتها القيام بما طلبته منها » ... فلم أجد ما أجيب به غير

— ٢٠٤ —

قولى : « لا بأس » ... وذهبت المرأة وتركتنى وقد تهدم كل ذلك البناء الذى شيدته فى رأسى فى مثل لمح البصر ...
وما بلغت فى حديثى هذا الحد ، حتى رأيت وجه صديقى
الناشر تغير ، وعلته كآبة مظلمة ... ورأى سكوتى عن الكلام ،
فقال من حلق جاف :
— وبعد ... ؟

— لا شىء ... انتهى الأمر كما ترى ... على أنى فكرت طويلا
وتساءلت : لماذا تصرفت الصغيرة هذا التصرف ؟ ... لماذا على
الأقل لم تسلمنى مطروفى يداً بيد كما سلمته لها ، وتعتذر إلى
بنفسها ؟ ... أكثر من ذلك : لقد صادفتها بعدئذ فى الدهليز ،
فكانت تميل عنى بوجهها وتجعل كأنها لم ترى ، وتسرع فى
الابتعاد دون أن تشير بكلمة إلى موضوع الرسالة ، بل دون أن
تلفظ حرفاً أو تحنى رأسها بتحيةة ... لقد انقطعت كل صلة بيننا ،
حتى تلك الصلة الرسمية العادية التى يفرضها الأدب واللياقة ...
وهنا مد صديقى ييده إلى قائلاً :

— أرنى هذه الرسالة ! ...

فناولته إياها ، فأمعن النظر فى عباراتها ، فقلت له :
— أتراها فهمت منها ؟ ...

— ٢٠٥ —

— مؤكد ... إن عبارتك التي تصف بها ضحكات الغادة واضحة وضوح النهار .

— لكن ... لماذا ظنت أني أعنيها هي بالذات ؟! ... إن هذه الصفات شيء استكشفتها أنا سرّاً ولا يعلم به غيري وغيرك ... فكيف تعلم هي أن لها ضحكات رقيقة !! ...

— يا عزيزي ! ... أهنا لك امرأة تجهل مواضيع الحسن فيها ؟ ...

— آه يا صديقي! ... إلى كنت سيء التصرف في هذا الأمر وقد ظهرت في عينها مغازلا من النوع المبتذل ... فأطرق صاحبي مفكراً وقال :

— شيء يؤسف له ! ... وعلام عزمت ؟ ...

— على الرحيل ...

قلتها في هدوء وحزن ... فرفع صاحبي في الحال رأسه :

— الرحيل ؟! ...

— ما من حل إلا هذا ... هذا هو الختام الطبيعي لما حدث ...

إن من الغلطات ما ندفع ثمنه غالياً ... لقد قلبت لك بالأمس ينبغي أن يقنع أمثالنا بعالم الأوهام فلم تقتنع بقولي ... هاهي ذى الخطوة الأولى خارج عالمنا ... أتعجبك هذه النتيجة؟ ... إن إقامتي الآن في

هذا النزول أصبحت مستحيلة ... فإن من الشاق على نفسى أن يذهب اعتبارى من نفس هذه الصغيرة ، وهى بعد لم تعد توحى إلى بشىء ... هاهى ذى الأوراق بيضاء ، ولم أكتب شيئاً منذ وقع هذا الأمر ... لقد أذرت العجوز بإخلائى الغرفة آخر هذا الشهر ، فاعتمدت ووجهت وحاولت أن تعرف السبب ، فأبدت عذراً واهياً ، فسكتت على مضض ... ولكنى أنا أشد منها غماً وحرناً على فراق هذه الغرفة ... لن أنسى أنى كتبت فى ظل هذه المرأة الصغيرة صفحات جميلة ... إن ما يخيفنى هو أن ينتهى كل هذا الوهم الجميل بهذه السرعة ، وأن قلبى الذى لا يستيقظ إلا مرة كل عشر سنوات يعود هذه المرة إلى صمته وظلامه ، وهو لم يكد يصحو ويخفق ويفرح ... وكم فى العمر من عشرات السنين ؟ ... وما أمر انتظار أعوام أخرى أجد فيها وقد لا أجد تلك التى تهز نفسى وتوحى إلى ! ... إنك أيها الصديق لن تتصور مقدار أسفى وهمى ... أتظن أنى مستطيع الكتابة هذا العام فى غرفة أخرى وقد اعتدت الحياة فى كنف هذه الصغيرة ؟ ... كم من الزمن ينبغى أن يمضى قبل أن أروض نفسى وقلبى على العمل فى مكان آخر لا أسمع فى جوه تلك الضحكات ؟! ... تحدثنى نفسى أحياناً أن أبقي على الرغم من كل شىء ... إن حياى الآن

كما قلت لك الساعة جميلة على الرغم من كل شيء ... وحتى إن لم يكن الأمر كذلك فأني على أى حال غير قدير ... نعم ! ... يا أخى إني أحس تماماً أنى غير قدير على تغيير هذه الحياة الآن ... ولكن مع ذلك ينبغي لى أن أرحل ... إن نفسى ليست هينة على ، وإن كرامتى فوق كل اعتبار ... فلنذهب أيها الصديق ... ينبغي أن تنصح لى بذلك لقد أُنذرت بالإخلاء ، وإني أعرف نزلا آخر ... وكفى ...

وأطرق صديقى ، ولم يجب ...

ومرت الأيام ... ورحلت إلى نزل آخر ، هادئ كل الهدوء ... ليس فيه غير حجرتين ... إحداهما التى قطنتها والأخرى يقطنها من زمن شيخ وقور كان فى شبابه ، كما عرفت عنه ، سكيراً مدمناً ، ثم تاب وأطلق لحيته وأمسك بسبحته وأصبح عضواً بارزاً فى جمعية لمنع المسكرات ... وكان بيننا جدار غير سميك أسمع من خلاله سعاله ، وأقول فى نفسى :

« سبجان الذى قلب الضحكة الرقيقة سعالاً خشناً ! ... »
نعم ... لم تزل الضحكة الرقيقة ترن فى أذنى ، وصورة المرأة

— ٢٠٨ —

الصغيرة تتراعى لعيني ... لم أزل في ظل ذلك الحسن أعيش ، وفي
كنف الجمال المتدثر بطهره وبراءته وطفولته أعمل ... وفي
ذكرى الجوار القديم بلحظاته السماوية أستمطر الوحي
والإلهام ...

وجاءني صديقي الناشر في مقرى الجديد ... وما كاد يجلس
ويعد منخاره الطويل إلى جدار الحجرة المجاورة متشهماً متنسماً ،
حتى سمع صوت السعال الخشن ، فأشاح بوجهه في الحال
صائحاً :

— أعوذ بالله ! ...

— نعم أيها الصديق — هذا ما صرنا إليه ! ...
قلتها متهدداً ...

وعاد صديقي ينظر إلى جدار الحجرة المجاورة مشمئزاً وهو
يقول :

— أظن أن خيالك هذه المرة لن يستطيع أن يصنع شيئاً بهيجاً
من هذه الحقيقة المرة ! ...
فقلت له :

— ومتى كنت أستطيع أن أصنع من الفسيخ شربات ؟ ...
فقال باقتناع :

— ٢٠٩ —

— حصل ... جازتك الجميلة صاحبة الضحكة الرقيقة ...
لقد عرفتها يا سيدى ...
— عرفتها ؟ ! ...

لفظتها فى صيحة دهشة وفرح وحب استطلاع ... فانطلق
صاحبى يقول :

— نعم ... عرفتها وجالستها ورأيتها رؤية العين ... اسمع يا
سيدى الحكاية كما حدثت بالضبط : دعانى تاجر الورق الذى
أعامله إلى سهرة فى « كاباريه » وهو رجل ملىء مرح « بحبوح »
فما كدنا نفرغ من العشاء حتى أقبل شاب وسيم يصحب شابة فى
مقتبل العمر ، أجلسها إلى جوار التاجر الموسر وهمس فى أذنه
بكلام ، ثم انصرف ... وطلب لها صاحبى التاجر مشروباً ، ثم
جعل يغازلها تارة ويحدثها تارة حتى تطرق الحديث إلى سكنها ...
فقالت : « كل شئ إلا السكن ، فهى تقطن حجرة فى نزل لا
غبار عليه ... صاحبته شديدة الحرص على سمعته ... وسكانه فى
غاية الجد ... وجارها الملاصق بالذات رجل محترم الهيئة كأنه
فيلسوف أو أستاذ ، لا تدرى ... ولكنه يخيفها بنظراته الغريبة ،
ويصدع رأسها طوال الوقت ؟ بموسيقى جدية من « فنوغراف » لا
تفهم منها شيئاً ... فما من مرة سمعت رقصة تانجو أو رومبا أو
(أرلى الله)

سمبا ... بل موسيقى تكسر الدماغ وتغم النفس ؛ لعنة الله عليه من جار سمج ! ... هكذا قالت بالحرف ، ولا تؤاخذنى ! ... وعندئذ تدخلت وذكرت لها اسم النزل وعنوانه ، فأذهلتها المفاجأة وقالت : « كيف عرفت ؟ ... » فقلت لها كالمخاطب لنفسى : « هو أنت . ! ... » واستدرجتها فى الحديث وعرفت كل شئ عنها وكل ما خفى عليك منها .. إنها ليست إيطالية يا عزيزى ، بل هى نوع من تلك الأنواع المختلطة المولدة الغامضة الجنسية التى توجد فى مصر ولا يعرف لها أصل ولا فصل ... قالت إن أبويها المرحومين عاشا فى أزмир زمناً ثم نزحاً إلى بلد آخر لا تذكر اسمه ... أما هى فقد ولدت فى إحدى حارات القاهرة ، وليس لها لغة أصيلة ؛ بل هى وجدت ونشأت فى بيئة ترطن لغات جميلة بالسماع والتواتر دون المعرفة الأكيدة ، فهى تتكلم العربية والرومية والإيطالية والفرنسية ، ولا تتقن إحداها قراءة أو كتابة ... وهذا هو سر إعادتها الغلاف الذى أرسلته أنت إليها قالت : تصوروا هذا الجار المجنون الذى يرسل إلّى نوتة موسيقية وخطاباً فرنسياً لأترجمه إلى الإيطالية ؟ ... أكان يظننى معلمة فى مدرسة ١٢ ... » أما مطالعاتها الليلية فلم تكن فى كتاب أدبى أو حتى فى قصة من القصص ، بل كانت فى برامج سباق الخيل

الذى اعتادت المراهنة فيه بما يصل إلى يدها من نقود ... ثم فى مجلات الأزياء و « الموضات » المصورة ... وهى تعيش بمفردها لأنها وحيدة مقطوعة ، لا أهل لها ولا زوج ... أما ذلك الذى زعمت أنه زوجها فهو ولا تؤاخذنى « قوادها » ... وقد اخترعت حكاية زواجه ومبيته عند والدته المريضة بالقلب إلخ ! ... لتموه على البوليس وعلى صاحبة النزل حتى لا تزدريها أو تطردها ... وكانت تتكلم وتضحك ضحكاتها التى تسميها رقيقة وهى تمد فمها « بسيجارة » إلى فم التاجر الموسر لتشعلها من سيجارته ... وأنا أتأمل وجهها بألوان المساحيق ... ولكن الطلاء الثقيل لم يستطع أن يخفى آثار جذرى قديم قد أحدث ثقباً عميقة فى الأنف والحدين والجبين قلت لى : إنها حسناء ... فجعلت همى أن أبحث عن ذلك الحسن ... لا ياعزى ... إنه خيالك كان ولا شك أقوى من كل طلاء يمكن أن تكتشفه أبرع مصانع التجميل ! ... وكاد الليل ينتصف ... فمال التاجر على أذن المرأة وهمس لها بكلمات فأشارت برأسها علامة الإيجاب والقبول ... وبادرت تلم أطراف ثوبها استعداداً للقيام ، لم تنس أن تخرج مرآتها من حقيبتها وتعيد صبغ ما انطمس بفعل الشراب والتدخين من أحمر شفيتها ... وغمز لى صاحبى التاجر بعينه غمراً

— ٢١٢ —

فهمت معناه ومرماه ، فأشرت له بيدي علامة النفي والزهد ...
ونهنضنا ... وشكرته على سهرته ودعوته وتركته عند الباب
لأنصرف إلى بيتي ... ومضى هو والمرأة الصغيرة وذراعها تحت
إبطه إلى سيارة تنتظر ، لتحملهما إلى حيث يكملان السهرة على
الوضع المتفق عليه ...

وانتهى صديقي الناشر من كلامه والتفت إلى ... ولست
أدرى : هل لحظ شحوب وجهي ؟ ... ويبدو أنه انتظر مني
تعليقاً على حديثه ... ولكنني خفت أن أتكلم فيخونني
صوتي ... فأطرقت وتشاغلت بقلم في يدي جعلت أعبث به على
ورقة أمامي ... إلى أن أحسست نظراته تلاحقني وتكاد تكشف
ما خلته قد ظهر على وجهي من انفعالات مخفأة ... ولم أجد بداً
من أن أتفوه بشيء ، فتحاملت على نفسي آخر الأمر ، وحاولت
جاهداً أن أجعل صوتي هادئاً ، وأن أجرد نبراته من كل غضب
وعتب وحزن ومرارة ... وليكني على الرغم من كل ذلك لم أشعر
بنفسي إلا وأنا أصبح به :

— لماذا جئت تقول لي هذا الكلام ؟! ...

فهرست الكتاب

صفحة

١١ أرى الله
١٦ الشهيد !
٣٢ موزع البريد !
٤٠ أنا الموت !
٦٠ وكانت الدنيا !
٧٤ دولة العصافير !
٨٠ في سنة « مليون »
١٠٠ الاختراع العجيب !
١٠٥ الأوسطى عزرائيل !
١١٠ معجزات وكرامات !
١٢٢ مؤتمر الحب !
١٣٠ امرأة غلبت الشيطان !
١٣٧ الحبيب المجهول !
١٥٢ في نخب « العصابة » !

— ٢١٤ —

صفحة

١٥٧ ! أسعد زوجين
١٦١ ! اعترف القاتل
١٧٧ ! ميلاد فكرة
١٨٤ ! وجه الحقيقة

